
شرح
القواعد الأربع
للإمام محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله)
1115 - 1206 هـ
شرح فضيلة الشيخ المجاهد
تركي بن مبارك البنعلي
(تقبله الله)
التراث العلمي
مؤسسة التراث العلمي

شَرحُ

القَوَاعِدِ الأَرْبَعِ

للإمامِ محمَّدِ بن عبد الوهَّاب (رحمه الله)

1115 – 1206 هـ

شَرحُ فَضِيلَةَ الشَّيْخ المُجاهِد

تركي بن مبارك البنعلي

تقبَّله الله

مقدِّمة النَّاشر:

الحمدُ لله رب العالمين، أغنانا بتوحيده عن الشرك به، وكفانا بفضله عمن سواه، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا نعبد إلا إياه، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله ومصطفاه -صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن والاه وسلَّم تسليما كثيرًا-؛ **أمَّا بعد:**

من المعلوم والمتقرر في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ أن الله ﷻ إنما بعث الأنبياء وأرسل الرسل وأقام الحجج لتقرير عبادته وحده لا شريك له، وأنه خلق السماوات والأرض، وخلق الكون بأفلاكه، وخلق كل شيء، ولم يأذن في اتخاذ شريك له في عبادته فقال -جل وعلا-: ﴿**إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا**﴾ [مريم:93]، وقال -جل وعلا-: ﴿**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾ [الإسراء:44].

فدلائل ربوبية الله -سبحانه- قائمة في الآفاق وفي الأنفس، ودليل عبادته وحده قائم ظاهر بيِّن، ولهذا لم يجعل الله ﷻ الغاية من بعث الرسل التدليل على ربوبية الله -تنزَّه عن الشركاء-، ذلك أن من نظر إلى دلائل توحيد الله -سبحانه- في كل ما خلق؛ تيقَّن أن هذا الملكوت له مدبر واحد، وله خالق واحد، وله متصرف واحد، وهو الله ﷻ ولا بدَّ من ذلك، وهذه الضرورية التي لا يحتاج معها المرء إلى برهان مفصل؛ بيد أنه يستشعرها في نفسه ويحسها فيما حوله، فلا بدَّ أن تقوده إلى حقيقة لا تقبل الجدل من أن هذا الذي خلق الكون وحده، وأن هذا الذي تصرف في الملكوت وحده؛ أنه هو الذي يجب أن يذل له وأن يخضع له وأن يعبد وحده دون ما سواه، وإنما أمر الله -جل وعلا- بتوحيده في ألوهيته وتوحيد عبادته، وبعث المرسلين جميعًا؛ لتبليغ هذا الأمر العظيم.

وبين أيدينا الآن كتاب جليل، من شيخ جليل، وفَّقه الله وأرشده لهذا الشرح الماتع الذي حوى من الفوائد أجلها ومن الفرائد أتمها، وخوَّلنا -بعد عرضه عليه- بأن ننشره، ليستفيد منه عوام المسلمين.

فتقبل الله شيخنا تركي البنعلي، وجزاه عن أمة الإسلام خير ما يجزي به عباده الصالحين.

النَّاشر: مؤسَّسة التراث العلمي

الجمعة 4 ربيع الآخر 1439 هـ - 22 ديسمبر 2017 م

المقدمة:

الحَمدُ للهِ الغفّار والصّلاة والسّلام على النّبيّ المختار وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار، وعلى مَن تمسّك بهداهم، وعلى وفقِ نَهجهم سار؛ **أمّا بعد:**

فنتباحثُ وإيّاكم في مَتنٍ عَظيمٍ على قِصَره، ألا وهو مَتنُ القَواعِد الأربَع، للشّيخِ المجدّد محمّد بن عبد الوهّاب -رحمه اللهُ رحمةً واسعة-.

فمَن هو هذا المصنّف لهذا المَتن، هل يَصحّ فيه ما يُشاعُ عَنه ويُذاع؟

أم هو كَما يَلمزه مَن يَتكلّم بهِ ويَثلمُ ويَطعَنُ فيه ببيّنة وبغَيرِ بيّنة ومِن الثّاني أكثرَ وأكثَر.

يُحملون أقوالَه ما لا تَحتَمل، ثُمّ يَصيرون إلى الطّعنِ فيه والذّمّ فيه، كما هو حالُ أئمةِ الإسلامِ، وعلى رَأسهم الخليلُ، على رَأسِهم شَيخُ المِلّة، وعلى رَأسِهم أبو الأنبياءِ إبراهيمُ -عليهِ السّلام-، الذي رُجمَ وأُلقي في النّار.

على رَأسِهم أولو العَزمِ مِن الرّسل، نوحٌ وموسى وعيسى، بل وعلى رَأسِهم محمّد صلّى الله عليه وسلّم، الذي قيلَ عَنه بأنّه سَاحرٌ، وقيلَ عَنه أنّه شَاعِر، وقيلَ عَنه بأنّه صابِئ إلى غَيرِ ذلك، بل وضعوا على ظَهرِه الشّريفِ سلا الجَزور، بل وضَعوا عندَ بَابِه الشّوك، بل طَرَدُوه مِن مَكّة، وطَرَدُوه مِن الطّائِف، ورَجموهُ بالحِجارة حتّى أُدميَت قدَماه الشّريفتان، صلّى الله عليه وآله وسلّم.

وبعدَ كُلّ أنواعِ هذا الأذى والابتلاء في ذَاتِ الله سُبحانَه وتَعالى، وكانَ حَقًّا على أتبَاعِه الذين أخذوا الكِتابَ بِقوّة، والذين بيّنوا ووضّحوا دونَ لَبسٍ ودونَ تَلبيسٍ ودونَ تَدليسٍ على النّاس، أن يُصيبَهم ما أصابَهم كَما أصَابَ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

وهؤلاءِ لا يَخافونَ في اللهِ لَومَةَ لائِم، كَما وَصفَ اللهُ سُبحانَه وتَعالى الذين يُحبّهُم بأنّهم كَما قالَ: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا مَن يَرتَدّ مِنكم عَن دِينهِ فَسوفَ يَأتي اللهُ بِقومٍ يُحبّهم ويُحبّونَه**﴾.

يَقولُ العَلامةُ ابنُ القيّم رَحمه الله: «ليسَ العَجبُ بأنّهم يُحبّونَ اللهَ سُبحانَه وتَعالى، ولكنّ العَجبَ أنّ اللهَ سُبحانَه وتعالى الخَالِقُ الرّازِق الغَنيّ عَن العَالمين، وعَن عِبادَتهم له وعَن تَوحيدِهم له، هو يُحبّهم سُبحانَه وتَعالى».

هؤلاءِ الذين قامُوا بِهذا الاستبدال الذي وصَفهُ اللهُ سبحانَه وتَعالى بهم في هذهِ الآية فقالَ: ﴿**أذلّةٍ على المؤمنين أعزّةٍ على الكَافِرين يُجاهدونَ في سَبيلِ اللهِ ولا يَخافُون لَومَة لائِم**﴾.

هذهِ الأوصافُ قد تَحقّقتْ في كَثيرٍ مِن الأئمةِ ومِنهم الإمامُ المصنّف، الإمامُ المجدّدُ محمّد بنُ عبد الوهّاب رَحمه اللهُ كَما نَحسبُه واللهُ حَسيبُه.

نَقفُ معَ سِيرتِه وَقفَاتٌ حتّى لا يَنخدعَ المُحبّ، وحتّى يَكفّ المُبطل عَن أباطيلِه فيه.

لمحة عن سيرة الشيخ محمد بن عبدالوهاب:

هو الشّيخُ المجدّدُ، شَيخُ الإسلامِ الإمامُ محمّد بنُ عبدِ الوهّاب بنُ سليمانَ بن علـيّ التّميمـي رَحمه الله.

وُلِدَ في العُيينة مِن أرضِ نَجد مِن بِلادِ الحَرَمَين، في عامِ ألفٍ ومائةٍ وخَمسَة عَشر مِن الهِجرة.

ولِدَ في بَيتِ عِلمٍ وصَلاحٍ وهُدىً وتُقىً، حَيثُ أنّ عَينَه لمْ تَقعْ إلّا على عَـالِمٍ أو عـلى قـاضٍ أو على طَالِبِ عِلم.

فكَان جَدّه وهو عبدُ الوهّاب بنُ عليّ التّميمي كانَ مِن عُلماءِ الحَنابِلةِ في عَصرِه.

كَذا كانَ جَدّهُ سُليمانُ مِن عُلماءِ عَصرِه وهو شَيخُ الحَنابِلةِ في عَصرِه.

أمّا أبوه وهو عبد الوهّاب بنُ سليمان فكانَ قَاضيًا، وكانَ مُفتيًا، وكَـانَ عَالِمًـا، كَـما كـانَ عَمّـه إبراهيم بن سُليمان أيضًا كانَ مِن العُلماء.

فهو نَشأَ في كَنفِ هؤلاءِ، ونَشأَ في بَيتٍ صَـالح، حَفـظَ القـرآنَ مِـن صِـغَره وهـو لمْ يَتجـاوزْ العَاشِرة مِن عُمرِه، حَفظَ القرآنَ على أبيه عبد الوهّاب، إذ أنّ أبـاه كـانَ يُحفّظـه القـرآنَ ويُقرِئـهُ بَعضَ العلومِ، قَبلَ أن يَذهبَ بِهِ إلى الكَتاتيبِ، وقَبلَ أن يَذهبَ بِهِ إلى الشّيوخ.

ثُمّ لمّا بَلغَ السّادِسة عَشَرة مِن عُمـرِهِ قَـامَ أبـوه عبـد الوهّـابِ بِتقدِيمـهِ إمامًـا للمُسـلِمين في الصّلاة، فكانَ يُصلّي بالمسلمين في سِنٍّ مُبكّرة، رَحمهُ اللهُ رَحمةً واسِعة.

وتَتَلمذَ على العَديدِ مِن الشّيوخ، سَواءٌ مِن أهلِ بلدهِ مِن أهلِ نَجد، كالشّيخ حَسّان التّميمـي وكالشّيخ عبد الرّحمن بن أحمد، دَرسَ عليهم مَفاتيحَ العلومِ في نَجد.

ثُمّ بعدَ ذلك رَحَلَ - رحمهُ اللهُ - وما مِن إمامٍ إلّا ولَهُ رِحلةٌ في طَلَبِ العلم، كما صنّف غَيرُ واحدٍ من أهلِ العلم المُصنّفاتِ العَديدَة في فَضلِ الرّحلة في طَلَبِ العلم، وكانَ مِن ضِمنِهم الإمامُ الخَطيب البَغداديّ - رَحمهُ اللهُ - كَتبَ وصنّف في ذلك وفي فَضلِ ذلك. كيفَ والصّحابةُ - رِضوانُ الله عليهم - كَجابِرِ بنِ عبد الله يَرحلُ شَهرًا كَامِلًا لأجلِ حَديثٍ واحِدٍ مِن أحَاديثِ رَسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم، كما رَوى ذلك الإمامُ البُخاريّ.

رَحلَ الشّيخُ محمّد بن عبد الوهّاب رحمه الله كَعادَةِ العُلماء مِن قَبلِهِ، رَحلَ إلى مَكّة في ألفٍ ومائةٍ وخَمسَة وثَلاثين مِن الهِجرَة، حَاجًّا إلى بَيتِ اللهِ الحَرام، وبَدأَ يَأخذ عَن شيوخِ مكّة وعَن عُلماءِ مكّة، وعُلماءِ الحَرم.

ثُمّ انتقلَ إلى مَدينةِ رَسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وآله وسلّم، وهُناك تَتَلمذَ على بَعضِ الشّيوخ كأمثالِ الشّيخ محمّد حياة السّندي - رحمه الله - نزيل المدينة.

كما تَتلمذَ على الشّيخِ عبد الله بن إبراهيم المَدَني رَحمَ اللهُ الجَميعَ، وأخذَ عليهِ عَددًا مِن أصنافِ العُلوم.

ثُمّ عادَ رَحمهُ اللهُ إلى نَجد، وأخذَ يدعو فيها هُناك إلى الدّينِ الخَالِص، إلى التّوحيدِ الصّافي، لاسيّما وقد تَتلمذَ واشتَدّ ودَرسَ كُتبَ الأوّلين مِن العُلماءِ رَحمهم اللهُ أجمعين.

وكَانَ نَصيبُ الأسدِ مِن تِلك الكُتبِ لِكُتبِ السنّة، فهو لمْ يغفلْ كُتب السنّة ودِرَاسَةِ تِلكَ الكُتبِ كالصّحيحَين، وكمُسنَدِ الإمامِ أحمَد، وكالسّنَن الأربَعة، إلى غَيرِ ذلكَ مِن المصنّفاتِ والكُتب، كَما مُوطّأ الإمامِ مالك رحم اللهُ الجَميع.

أخذَ ذلكَ الزّادَ مِن المَعينِ الصّافي مِن هَدي رَسولِ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، ثُمّ انكَبّ على كُتبِ الشّيوخِ الصّابرين الصّادقين، كَشيخَي الإسلامِ ابن تَيميّة وابن القيّم رَحمهُما اللهُ رحمةً واسِعة.

فهؤلاءِ الأئمّةُ الذين رَوَوا لنا، وأظهَروا لنا، وجَمعوا لنا في مُصنّفاتِهم خُلاصَةَ هَدي السّلفِ رِضوانُ اللهِ عَليهم، خُلاصَة أخبَار أئمّةِ الإسلامِ مِن أهلِ السنّة والجَماعَة، فانكَبّ عَليها واستَخلصَها واستفهمها رَحمهُ اللهُ رحمةً واسِعة.

بعدَ ذلكَ لمْ تتوقفْ الرّحلةُ في طَلبِ العلمِ، فرَحلَ إلى العِراق، رَحلَ إلى البَصرَة لِطَلبِ العِلمِ والأخذِ عَن شُيوخِها، فأخذَ عَن الشّيخِ محمّد المَجموعي رَحمهُ الله.

تَتلمَذَ عَليهِ في البَصرة، ومَكثَ هُناك يَقرأُ عَليه المتونَ، ويَقرأُ عَليه كُتبَ العُلماء رَحمهُم اللهُ رَحمةً واسِعة.

ثُمّ لم يَكنِ الشّيخُ في أثناءِ الطّلبِ بِمعزِلٍ عَن الدّعوة، لاسيّما دَعوة التّوحَيد، الدّعوةُ إلى لا إلهَ إلّا الله، إلى إفرادِ اللهِ بالعِبادَةِ سُبحانَه وتَعالى، وألّا يُصرَفَ أيّ نَوعٍ مِن أنواعِ العِبادَة لِغَيرِ اللهِ تَعالى.

وكَانَ مِمّن نَاصَحَهم ونَصحَهم بِذلك، هو شَيخُه الذي يَستفيدُ مِنه، وهو الشّيخُ محمّد المجموعي، فاستَفادَ الشّيخُ مَن تلميذهِ وقَبلَ هذهِ الدّعوةِ المُبارَكة واستَجابَ لها، إلّا أنّ المُغرِضين مِن أهلِ البَصرَة قاموا وشَنّعوا على الشّيخ ثُمّ قَاموا بَطردِهِ مِن البَصرة، طَرَدوهُ ظَهيرَةً في حَرّ شَديد، فَخرجَ الشّيخُ لا يَلوي على شَيء، خَرجَ وليسَ مَعه مِن الزّاد ولا مَعه مِن المَال، خَرجَ يَمشي على قَدمَيهِ في حَرّ شَديد إلى مَدينَةِ الزّبَير يَمشي على قَدمَيهِ حتّى أدركَهُ الهَلاكُ وأدرَكتهُ الهَلكَةُ في مُنتَصَفِ الطّريق عَطَشًا وحَسرَة، فلَقيهُ رَجلٌ يُدعَى ويُكنّى بأبي حميدان مِن

أهلِ الزّبَير، عندَهُ المَاءُ وعندَه دَابّة ورَاحِلة وهي الحِمَار، فلمّا رأى الشّيخ وعليه الهيبةُ والوقَار وقد بَلغَه ما بلغه مِن العَطَش والحَرّ والنّصَب والتّعب أتاهُ وسَقَاهُ مِن المَاء، وحَمَله على الحِمار، وأخـذَه مَعه إلى الزّبَير.

﴿هلْ جَزاءُ الإِحسَانِ إلّا الإِحسَان﴾

قَامَ الشّيخُ بِنَصيحَةِ هذا الرّجلِ وبَدعوتِه إلى دَعوةِ التّوحيدِ الخَالِص ألّا يُشرِكَ بـالله سُـبحانَه وتَعالى شَيئًا، فمَكَثَ عندَه أيّامًا ثُمّ أرَادَ أن يَرحلَ إلى الشّامِ لِيأخُذَ عَن عُلماءِ الشّام، إلّا أنّ النَفقَةَ والزّادَ الذَي لدى الشّيخ قد قَصُرَتْ عَن إبلاغِهِ إلى الشّام، فاهتدى إلى نَجد، فسَارَ – رَحمهُ اللهُ – إلى نَجد إلى محَلّته إلى مَسقَطِ رَأسِـه، وفي الطّريـقِ نَـزلَ بالإحسـاء، وهنالـك تَلقّـى عَـن بَعـضِ شُيوخِها، ودَرَس عندهم كالشّيخ عبد الله بن محمّـد الشـافعي الإحسـائي، تَتلمـذَ عَليـه مُـدّة، وجَلسَ عندَه يَتدارَس العلم ثُمّ بعدَ ذلكَ أقبَلَ عَائِدًا إلى نَجد، ذَهبَ إلى بَلدتِهِ العُيينـة، ثُـمّ دَعـا هنالك لاسيّما بعدَما تُوفّي والدُه، ثُمّ انتقَلَ إلى قُربِها، وهُناك أخـذَ يَـدعو إلى التّوحيـدِ الخَـالِص، لاسيّما ونَجد والجَزيرة العَربيّة بِرُمّتها آنذاك تَرزَحُ في ظِلالِ الشّركِ والمُشركين.

انتشرَ فيها الكَثيرُ مِن الشّركيّات والكفريات، والكَثـيرُ مِـن الخُرافَـات، فأصـبحَ الكَثـيرُ مِـن النّـاسِ يَقصـدُ الأحجَـارَ والأشـجَارَ والكهـوفَ والمَـزارَات والقبـورَ يَـدعوهم مِـن دونِ الله، يَستغيثُ بِهم مِن دونِ الله، يَذبحُ لَهم مِن دونِ الله، ويَطوفُ عَليهم، إلى غَـيرِ ذلـكَ مِـن أصـنافِ وأنواعِ العِبادَة.

لمْ يَسكتِ الشّيخُ – رَحمهُ الله – عن ذلك، بل أخذَ يَقطعُ تِلكَ الأشجارَ التـي تُعبـدُ مِـن دونِ الله تَعالى، هنالك الفُحولُ مِن النّخيلِ كانَت النّساءُ يَقصدْنَ تِلكَ الفحولَ مِن النّخيلِ ويَدعُونَها مِن دونِ الله سُبحانَه وتَعالى.

تَقولُ النّساءُ: (**يا فَحلَ الفحول ارزقني زَوجًا قَبلَ الحَول**) ويَدعون تِلكَ النّخيل التي لا تَضرّ ولا تَنفعُ مِن دونِ الله سُبحانَه وتَعالى، يَدعونَها بِما أرَادوا وبِما شَاؤوا مِن الأُعطياتِ ومِن الـرّزق وغَيرِ ذلك.

فلم يَسكتِ الشّيخُ بل وكّلَ أُنَاسًا يَقطَعون تِلك الأشجارَ، ويُعطِيهم الأمـوالَ - رَحمـهُ الله - على ذلك، يَقطعُونَها خِفيةً عَن أعين النّاس.

ثُمّ تَوجّه الشّيخُ بِنفسهِ إلى شَجرة هي مِن أكبَرِ الأشجارِ آنذاك، والتي تُقصَدُ وتُعبَدُ مِـن دونِ الله - سبحانه وتعالى - وقَطعَها بِفَأسِه - رَحمهُ الله - اقتداءً بِفأسِ الخَليلِ عَليه السّلام.

كَما عَمِلَ الشّيخ على هَدمِ وتَسويةِ ما بُني على القبورِ، لاسيّما التي تُقصَدُ مِن دونِ الله سـبحانه وتعالى، كما يَنسبونَها لبَعضِ أصحابِ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كضَريحِ زَيدِ بن الخطّـاب، أو ضِرار بن الأزور أو غَيرها مِن الأضرِحَة البَارزَة آنذاك والتـي تُقصَـدُ مِـن دونِ الله سُـبحانَه وتَعالى.

فَخَرجَ ومَن مَعه إلى ضَريحِ زَيد بن الخطّاب، فَهدمَه بِنَفسه - رَحمهُ الله - حتّى انتشرَ واشـتهر صيته آنذاك، بأنّه يَهدمُ ما بُني على القبورِ، ولا يُقرّ الشّركَ باللهِ سُبحانَه وتَعالى.

لّما ظَهرَ أمرُ الشّيخِ - رَحمهُ اللهُ - في تِلك البَلـدة كـانَ مـن الحَـوادِثِ البَـارزَة الظّـاهرة التـي حَصَلت آنذاك أنّ امرأةً أتته، وشَهدتْ على نَفسِها عندَه بأنّها ثيّبٌ زَانية وتَطلُبُ مِـن الشّـيخِ أن يُقيمَ عَليها الحَدّ، كَرّر الشّيخُ عَليها ذلك: لَعلّك ولَعلّك، لعلّكِ اغتُصبتِ، لعلّك كذا.

وهي تَقولُ: لا.

وأقرّتْ على نَفسِها أربعًا أنّها فَعلَت الزّنا مُختَارةً - والعياذُ بالله - وهي مُحصَنَة.

فأمَرَ الشّيخُ - رَحمهُ الله - بإِقامَة الحَدّ عليها، ورَجَمها، رَحمهُ الله رحمةً واسعة.

لمّا رَجمَها استَهلّ الإعلامُ والفضائيات آنذاك هذا الأمرَ، فَشنّعوا عَليه وألّبوا عليه، وقَامَت الدّنيا ولم تَقعُدْ، كَيفَ لهذا الشّيخِ أن يُقيمَ بَعضَ الحُدودِ الشّرعيّة التي جاءَت في الكِتابِ والسنّة.

فَطُرِدَ الشّيخُ مِن تِلك البَلدة، وخَرجَ - رحمه الله - إلى الدرعيّة ماشيًا على قَدميه وهو يتلو: ﴿**ومَن يَتّقِ اللهَ يَجعلْ لهُ مَخرَجًا ويَرزقهُ مِن حَيثُ لا يَحتَسِب**﴾ وهو يُهلل ويُكبّر ويُسبّحُ اللهَ سُبحانَه وتَعالى، وعنده مروحة من خوص فيَتروّح بِها عَن الحَرّ - رَحمهُ الله - إلى أن وَصلَ الدرعيّة.

وهُناك نَزلَ بِبيتِ أحدِ الأقاربِ، وأخذَ يَدعو ذلك الرّجل، ويَدعو مَن حَولَه مِن النّاس، ممّن يُصادفُهم ويَلقاهُم، فأُرشدَ الشّيخ إلى أن يدعو أمير الدرعية آنذاك وهو الشّيخُ محمّد بن سعود - رَحمهُ الله - فدعاه الشّيخ إلى ذلك، إلى دَعوةِ التّوحيد الخَالص، واستجابَ الشّيخ محمّد بن سعود، وهنا تعاقدا وتناثرا وتَناصرا على القيامِ بِدعوةِ التّوحيد.

التقى الدّينُ والدّولة معًا، التقى البيانُ والسّنان معًا.

فقالَ الشّيخ محمّد بن سعود للشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب - رَحمهُ الله -: أخشى إن أظهرَنا اللهُ - سبحانَه وتَعالى - على النّاس أن تَدعنا وتَرحلَ إلى بَلدك، فقالَ: الشّيخ بل الدم الدم والهدم الهدم.

فقالَ له الشّيخ محمّد بن سعود: أبشِرْ بدارٍ خَيرٍ مِن دَارِك، أبشِرْ بالعزّ والتّمكين.

فقالَ له الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب: وأنا أبشّرُك بخَيرَي الدّنيا والآخِرة.

تَعاهَدا وتَناصَرا على ذلك، فقاموا بدعوةِ النّاس إلى التّوحيد الخَالص، وبِنَهي النّاس عَن الشّرك بكلّ صورِه وألوانه، سَواءٌ من القَديمِ أو الحَديث.

لّما دعاهم الشّيخ إلى التّوحيد وأخذَ بالسيفِ والسّلطان، فأخذوا يَفتحونَ ما حَولَهم مِن القُرى والمَيادين، ففتحوا ما يُعرَفُ اليومَ بالرّياضِ، وبالقَصيم وبالخرج وفي غيرها، فتوسّعت دَولتُهم وشَوكتُهم آنذاك.

فمَكثَ الشّيخ هنالك يدعو إلى التّوحيد في بيتِهِ الذي يُعرَفُ آنذاك بوكرِ التّوحيد، وكانَ الشّيخ - رَحمهُ الله - يُعطي فيه الدروسَ المتعلّقة بالشّريعة طَرَفَي النهار، وفي وَسطِ النّهار يُقامُ وتُقامُ في هذا البَيت التعليم على فنون الحرب.

فكانَ الشّيخ يَجمعُ بَينَ هذا وهذا، فسُمّي بَيتُه بوكر التّوحيد.

ومِن هنالك خَرجت هذهِ الدّعوة الُمباركة، وتَتلمذَ على الشّيخِ مِن الخَلقِ الكَثير، ومِن أبرزِ طَلَبَة الشّيخ ابنُه حُسين بن محمّد بن عبد الوهّاب، وابنُه علي بن محمّد بن عبد الوهّاب، وابنُه إبراهيم بن محمّد بن عبد الوهّاب، وابنُه عبد الله بن محمّد بن عبد الوهّاب، وحَفيدُه عبد الرّحمن بن حسن بن محمّد بن عبد الوهّاب.

والشّيخ حُسين بن غنام - رَحمهُ الله - الذي كتبَ تَرجمة لشيخِه محمّد بن عبد الوهّاب، فليرجعْ لها مَن شاءَ أن يَرجِع.

كذا غَيرُهم مِن العُلماء ومِن طُلّابِ العلمِ النّجباء الذين استفادُوا مِن الشّيخ وتَتلمذُوا عَليه.

ويُشار إلى أنّ مِن أبناء الشّيخ - كما تَقدّم - ومرّ معنا الحُسينُ والحسنُ وعليّ - رَحمهم الله - وبهذا تَعلم كَذبَ ما يُروّجُ له البعضُ مِن أنّ الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب وتلامذة الشّيخ محمّد

بن عبد الوهّاب ومَن يَسيرُ على خُطاهُم في الحَقّ والهُدى، في أنّهم لا يُحبّون آلَ بَيتِ النّبـيّ صـلّى الله عليه وسلّم، أو أنّهم يُبغضونَ - والعياذ بالله - آلَ بَيتِ النّبيّ صـلّى الله عليـه وسـلّم، وكُـلّ ذلك مَحضُ افتراءٍ وكَذِب.

ها أنتم تَرون أنّه يُسمّي فَلذاتِ أكبَادِه بأسماءِ آلِ بَيـتِ النّبـيّ صـلّى الله عليـه وسـلّم، سـمّى الحسنَ والحُسين وعليّ - رَحمهُ الله - ورضي اللهُ عَن آلِ بَيتِ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

هؤلاءِ كانوا بَعضَ تَلامذَةِ الشيّخ، وللشّيخ - رَحمهُ الله - تَلامذةٌ غَيرُهم كَثير، مِنهم محمّد بن عبد العَزيز بن محمد بن سعود، وغير ذلك.

وكذا للشّيخِ مؤلّفاتٌ عَديدةٌ، وأغلبُ هذهِ المؤلّفات إنّما هـي في التّوحيـد وإنّـما هـي في نَبـذِ الشّركِ والتّنديد.

ومِن أعظمِ مُؤلّفاتِ الشّيخِ - رَحمهُ الله - "كتابُ التّوحيد الذي هو حَقّ اللهِ على العَبيد" ومِن مُصنّفاتِهِ - رَحمهُ الله - **مُختصَر سِيرةِ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم**، وهـو اختصـارٌ لسِـيرةِ ابـنِ هِشام - رَحمهُ الله - وكتابُ ابنِ هِشام اختصَارٌ لسِيرَة ابنِ إسحاق رَحمهُ الله رَحمةً واسِعة ورَحـمَ اللهُ الجَميع.

كذا له من المُصنّفات اختصارُ **"زادِ المَعاد"** للإمامِ ابنِ القيّم - رَحمهُ الله - وله مِـن المصـنّفات كتابُ **"الكَبائِر"**.

له كذلك رَسائِلُ عَديدَة في التّوحيدِ وفي الفِقهِ وفي غَيرِها، **"كالأصـولِ الثّلاثـَة"**، و**"كَشـفِ الشّبهات"**، و**"القَواعِد الأربَع"** التي بَينَ أيدينا، وغيرها مِن الرّسَائِل العَديدة.

تُوفِّي – رَحِمهُ الله – في ألفٍ ومِئتَين وسِتّ مِن الهجرَة، في الدرعيّة التي وَعدَ وبَايعَ الشّيخ محمّد بن سعود على أن لا يُفارقَها بعدَ النّصرِ والتّمكين، ماتَ عَن عمرٍ يُناهِز الاثنين والتّسعينَ سَنة – رَحِمهُ الله –.

مَن مصنّفاتِهِ كما تَقدّمَ ومِن مؤلّفاتِهِ هذهِ الرّسالَةِ الصّغيرَة في حَجمِها، الكَبيرَة في مَضمونِها ألا وهي القَواعِدُ الأربَع.

وكما تَعلمونَ أنّ القَواعِدَ جَمعُ قَاعِدة، وكما تَعلمونَ مِن عِلمِ اللّغةِ أنّ الأعدَادَ مِن ثلاثَة إلى تِسعَة تُخالفُ المَعدودَ تَذكيرًا وتَأنيثًا.

فالقَواعدُ جَمعُ قَاعِدة، وهي مؤنّث فلا يُقالُ القَواعدُ الأربَعة، بِتاءِ التّأنيثِ وإنّما يُقالُ: **"القَواعِدُ الأربَع"**.

هذهِ القَواعدُ تَتعلّقُ بأصلِ الدّين، تَتعلّق بالتّوحيدِ، هذهِ القَواعدُ تَتعلّق بالإنكارِ والتّحذيرِ مِن الشّركِ والتّنديد.

فعلى المسلمِ أنْ يُعيرَها سَمعَه، ويُراعِي في ذلك ويُظهرُ الاهتمامَ البَالِغَ في تَعلّم هذهِ القَواعدِ الأربَع والاستفادَةِ مِنها، حتّى لا يَنخدعَ بِمَن يَنخدِع ممّن يُظهرُ الإسلامَ والتّوحيد، وهو شَرّ مِن المُشرِكين الأوائِل الذين يُناقضونَ التّوحيد.

□

(بِسم اللهِ الرّحمنِ الرّحيم: أسأَلُ اللهَ الكَريمَ رَبّ العَرشِ العَظيم أنْ يَتولّانا في الدّنيا والآخِرَة، وأنْ يَجعَلني مُبَاركًا أينما كُنت، وأنْ يَجعَلنا مِمّن إذا أُعطي شَكَر، وإذا ابتُلي صَبَر، وإذا أَذنَب استَغفَر، فإنّ هؤلاءِ الثّلاثَة عُنوانُ السّعادَة).

الشرح:

قوله: (بسم الله الرحمن الرحيم):

بَدأَ الشّيخُ – رَحمهُ اللهُ – هذهَ الرّسالَةَ بالبَسمَلة، اقتداءً بالكِتابِ العَزيز، واقتداءً بِفعلِ النّبيّ صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم في كُتبِه ورَسائِلِه كما أرسَلَ إلى الملوكِ وإلى غَيرِهم مِن الرّؤساءِ والأُمراءِ، فاستَفتحَ كُتبَه صلّى الله عليه وسلّم بِبِسمِ اللهِ الرّحمن الرّحيم، كما جَاءَ في الصّحيحَين وفي غَيرِهما.

قوله (أسألُ اللّهَ الكَريم رَبّ العَرشِ العَظيم):

فبَدأَ المصنّفُ – رَحمهُ اللهُ - هذهِ الرّسَالَةَ بالدّعاء لقَارِئها، بالدّعاءِ للمُتعلّمِ والمُتفقّه، ومَن تَبلغُه هذهِ الرّسالَة، وهذا مِن حُسنِ التّعليم حَيثُ يَدعو للقارِئ والمُتعلّم، وفي ذلك أنّه يُظهرُ أنّه حَريصٌ كُلّ الحِرصِ على هِدايَةِ النّاسِ، وليسَ بِحَريصٍ على غِوايةِ النّاس.

بل يُحبّ أنْ يَهتديَ أولئكَ النّاسُ على يَديه وبِسببه حتّى يَنالَ الأجرَ العَظيمَ، وحتّى يَنجوا أولئكَ مِن الضّلالِ المُبين.

ففي ذلك أنّه يَدعو أوّلًا كما أسلفنا للسّامِع أو للقَارِئ أو لمَن يَصلْه الكِتاب، والسنّة في الدّعاءِ العَارِض للغَير أنْ يَبدأَ الدّاعي بِنفسِه، ثُمّ يُثنّي بِغَيرِه.

هكذا جَاءَ عَن رَسولِ اللهِ صلّى الله عليه وآله وسلّم، كما أَخرجَ ذلكَ الإمامُ أبو داود - رَحمهُ اللهُ - في سُنَنه عَن أُبَي رضي الله عَنه وأرضَاه، وكذا أخرَجَ ذلكَ الإمامُ الطّبرانِي - رَحمهُ اللهُ - عَن أبي أيّوب الأنصَاري - رَحمهُ اللهُ - عَن رَسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه: **"كانَ إذا دَعا لِغَيرِه بَدأَ بِنفسِه"**.

هذهِ هي السنّة، كَيفَ واللهُ سُبحانَه وتَعالى قد حَضّ وأمرَ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بذلك فقالَ: ﴿**فاعلَمْ أنّه لا إله إلّا اللهَ واستَغفِرْ لِذَنبِكَ ولِلمُؤمِنين والمُؤمِنات**﴾.

إذًا بَدأَ بالاستغفارِ وبالأمر بالاستغفَارِ وهو مِن الدّعاءِ للنّفسِ ثُمّ للغَيرِ، هكذا حَثّ اللهُ سُبحانَه وتَعالى نَبيّه صلّى الله عليه وسلّم أنْ يَفعَلَ ذلك.

قالَ الإمامُ المَنّاوي - رَحمهُ اللهُ - كما في الفَيض: «مِن السنّة إذا بَدأَ الإنسانُ بالدّعاءِ أنْ يَبدأَ بِنفسِه قَبلَ أنْ يَبدأَ بالدّعاءِ لِغَيرِه».

هذا هو ما وَرَدَ عَن رَسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم، قالَ: وإنْ كانَ قد وَردَ عَن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أحيانًا أنّه يَدعو لِغَيرِه دونَ أنْ يَبدأَ بِنفسِه، كما قَالَ: «**رَحمَ اللهُ يوسف**».

وكما قالَ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «**اللهمّ فَقّهه في الدّين وعَلّمهُ التّأويل**» لابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما.

وكما قالَ لحَسّانَ بنِ ثَابتٍ رضي اللهُ عنه وأرضاه: «**اللهمّ أيّدهُ بِروحِ القُدُس**». وغير ذلك من أدعيته صلّى الله عليه وسلّم، فنَجدُ أنّه في تِلكَ المواقِف لمْ يَبدأْ بالدّعاءِ لِنفسِه.

هكذا صَنعَ الشّيخ محمّد بنُ عبد الوهّاب – رَحمهُ الله – فَبدأَ بالدّعاءِ للمُستَمعِ وللقَـارِئ أوّلًا ومُباشَرةً، وهذا مِن عَادَتِهِ – رَحمهُ اللهُ – أنّه دائِمًا يَقول: اعلَمْ أرشَدكَ اللهُ، اعلَمْ هداكَ الله، اعلَـمْ وفّقكَ الله.

وهو هاهنا يَقولُ: "أسأَلُ اللهَ الكَريم رَبّ العَرشِ العَظيم".

وها هُنا سَألَ اللهَ سُبحانَه وتَعالى، وتَوسّـلَ إليـهِ بأسـمائِه وصِـفاتِه جَـلّ في عُـلاه، وأنّـه رَبّ العَرشِ العَظيم، والعَرشُ هو مِن أعظَمِ مَخلوقاتِ الله جَلّ في عُلاه، بل هو أعظـمُ مَخلوقـاتِ الله جَلّ في عُلاه، واللهُ سُبحانَه وتَعالى في كِتابِهِ العَظيم، وصَفَ هذا العَرشَ بأنّـه عَظـيمٌ، بالعَظَمَـة، ووَصفَ بالكَرَم، ووَصفَه بالمَجد، رَبّ العَرشِ العَظيم، وقالَ: ﴿**رَبّ العَرشِ الكَريم**﴾، وقـال: ﴿**ذو العَرشِ المَجيد**﴾.

والمَجيدُ ها هنا في هذهِ الآيةِ قُرأَتْ بالوَجهَين، قُرأَتْ بالرّفعِ وقُـرأَتْ بـالخَفض كـما في قِـراءَةِ الكَسَائي وخَلف، وقِراءَةِ غَيرِهما.

فإذا قُرأَتْ هذهِ الآيةُ (**ذو العَرشِ المَجيدُ**)، فالمَجيـدُ عائِـدٌ عـلى الله – سُـبحانَه وتَعـالى – لأنّ المَجدَ مَن صِفاتِهِ جَلّ في عُلاه. وإذا قُرأَتْ بـالخَفضِ (**ذو العَـرشِ المَجيـدِ**)، فالمَجـدُ عائـدٌ عـلى العَرشِ، فالمَجدُ مِن صِفاتِ العَرشِ العَظيم.

فإذًا سَألَ الشّيخُ اللهَ سُبحانَه وتَعالى، بِبَعضِ صِفاتِهِ، فقالَ: (الكَـريم)، وقـالَ: (رَبّ العَـرشِ العَظيم).

بِماذا سَألَه؟ سَألهُ للقَارِئ بأنْ يَتولّاه.

قوله (أنْ يَتولّاكَ في الدّنيا والآخِرَة):

فاللهُ سُبحانَه وتَعالى إذا تَولّى العَبدَ فلا ضَيرَ عَليه، ولا يَلحَقه مَكروه لا في الدّنيا ولا في الآخِرَة، لذلكَ قالَ ابنُ القَيّم في كِتابِ الفَوائِد: «إذا تَغلّبَ عَليكَ الشّيطانُ، فلا تَظنّنَ أنّ الشّيطانَ غَلبَ ولكنّ الحَافِظَ أعرَض».

إذ ﴿ **ألا إنّ أولياءَ اللهِ لا خَوفٌ عَليهم ولاهُم يَحزَنون** ﴾، فاللهُ سُبحانَه وتَعالى إذا تَولاكَ فلا خَوفَ عَليكَ ولا حُزنَ عَليك في الدّارين لا في الدّنيا ولا في الآخِرَة، لن تَجدَ المَكروهَ ولن تَجدَ السّوءَ، ذلك بأنّ اللهَ مَولى الذينَ آمنوا وأنّ الكَافرين لا مَولى لهم.

اللهُ سُبحانَه وتَعالى يَقولُ: ﴿**اللهُ وليّ الذينَ آمَنوا يُخرِجُهم مِن الظّلماتِ إلى النّور والذينَ كَفرُوا أولياؤُهم الطّاغوت يُخرجُونَهم مِن النّور إلى الظّلماتِ أولئكَ أصحَابُ النّار هُم فيها خَالِدون**﴾.

إذًا الذينَ تَولاهُم اللهُ سُبحانَه وتَعالى ونَسألُ اللهَ سُبحانَه وتَعالى أنْ أكونَ وإيّاكُم مِن أوليائِه، هَؤلاءِ يُخرجُهم اللهُ سُبحانَه وتَعالى مِن الظّلماتِ، مِن ظُلماتِ الكُفرِ، ومِن ظُلماتِ الشّرك، ومن ظُلماتِ الضّلالِ والفِسق، إلى نُورِ التّوحيدِ، إلى نُورِ الإيمانِ، إلى نُورِ الإسلام، إلى نُورِ الإحسان.

قوله (وأنْ يَجعَلكَ مُباركًا أينما كُنت):

دَعا للقَارِئ والمُستَمع ولطَالِبِ العِلمِ أنْ يَكونَ مُبَارَكًا حَيثُما كانَ، كما قالَ اللهُ تَعالى على لِسانِ عيسى بنِ مَريم عَليه السّلامُ: ﴿**وجَعَلَني مُبَارَكًا أينَما كُنْت**﴾.

فإذًا الدّعاءُ بالبَرَكةِ أمرٌ حَسَنٌ، ولِذلكَ دَعا بِذلكَ الشّيخُ محمّد بنُ عبد الوهّاب للمُستَمعِ ولِطَالِبِ العِلمِ، كما ذَكرَ بَعضُ الأنبياءِ كعيسى كما أسلفنا.

قوله (وأنْ يَجعَلكَ مِمّن إذا أُعطي شَكَر، وإذا ابتُلي صَبَر):

الإنسانُ في هذهِ الحَياة تَمرّ عَليهِ هذهِ الأطوار: إمّا نِعمَةٌ، وإمّا بَلاء وإمّا ذَنب.

فالنّعمةُ تَحتاجُ إلى شُكر، والبَلاءُ يَحتاجُ إلى صَبرٍ ورِضا، كَمَا صَحّ عَن رَسولِ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم مِن حَديثِ صُهَيب الرّومي رضي الله عنه وأرضاه، كما عندَ مُسلم أنّه قالَ: **«عَجَبًا لأمرِ المؤمِن إنّ أمرَهُ كُلّهُ لَهُ خَير، إنْ أصَابَتهُ سرّاءُ شَكرَ فَكانَ خَيرًا له، وإنْ أصَابَتهُ ضَرّاءُ صَبرَ فَكانَ خَيرًا لهُ، وليسَ ذلكَ إلّا للمُؤمِن كما في بَعضِ الرّوايات»**.

إذًا إنْ أصَابَته ضَرّاء صَبرَ ولم يَجزَعْ ويَلطُمْ ويَفعلْ ما يَفعَلُه البَعضُ مِن كَبائِرِ الذّنوب والتّسخّط والعياذ بالله.

فقد جاءَ عَن رَسولِ الله صلّى اللهُ عليه وسلّم مِن حَديثِ أنس بنِ مالك رضي الله عنه وأرضاه، كما عندَ الإمامِ التّرمذيّ وغَيره، قالَ صلّى الله عليه وآله وسلّم: **«إنّ اللهَ إذا أحَبّ قَومًا أبتَلاهُم، فَمَنْ رَضي فلَهُ الرّضا ومَن سَخِطَ فعَليهِ السّخط»**.

نَسألُ اللهَ سُبحانَه وتَعالى أنْ نَكونَ مِن الرّاضين عَن رَبّنا وعَن قَضاءِ رَبّنا سُبحانَه وتَعالى: ﴿**رَضي اللهُ عَنهُ ورَضوا عَنه**﴾ كما أنّهم رَضوا عَن اللهِ ورَضوا عَن أقدَارِه المُؤلِمة، والبَلاء الذي يَنزِلُ بِهم، فبإذنِ اللهِ سُبحانَه وتَعالى يَرضى اللهُ عَنهم.

قوله (وإذا أذنبَ استغفَر):

كما أنّه إذا حَصلَتْ لَه النّعمةُ (إذا أُعطي شَكَر)، وكما أنّه (إذا ابتُلي صَبَر)، كذلك (إذا أذنبَ استَغفَر).

اللهُ سُبحانَه وتَعالى وصفَ أقوامًا فقالَ: ﴿**والذينَ إذا فَعلُوا فَاحِشَةً أو ظَلَمُوا أنفُسَهُم ذَكَرُوا اللهَ فاستَغفرُوا لذنُوبِهم ومَن يَغفِرُ الذّنوبَ إلّا الله**﴾.

فإذًا عَليكَ أيّها المُسلمُ، عَليكَ أيّها المُؤمنُ إذا أذنَبتَ، إذا أَخطَأتَ أنْ تستَغفرَ اللهَ سُبحانَه وتَعالى، وأنْ تَتوبَ إليه، ﴿**وتُوبُوا إلى اللهِ جَميعًا أيّها المُؤمنونَ لَعلّكم تُفلِحون**﴾.

فالتّوبَةُ هي الفَلاحُ والنّجَاحُ في الدّارَين بإذن اللهِ سُبحانَه وتَعالى، كيفَ وأنّ ذلكَ الفعلَ ممّا يُحِبّهُ اللهُ سُبحانَه وَتَعالى ويَرضَاه،﴿ **إنّ اللهَ يُحبّ التّوابينَ ويُحبّ المُتَطَهّرين**﴾.

فاللهُ سُبحانَه وتَعالى يُحبّ التّوابين، يُحبّ الإنسانَ الذي إذا أذنَبَ يَتوب.

وتَأمّلْ ما قالَ اللهُ – سُبحانَه وتَعالى – يُحبّ التّائبين، وإنّما قَالَ: **التّوابين**، وهذهِ صِيغَةُ مُبالَغة مِن التّوبة.

فإذًا هؤلاءِ الذينَ عَظّموا اللهَ سُبحانَه وتَعالى، هؤلاءِ يُكثِرونَ التّوبة، كيفَ والنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم الذي غُفرَ لَه ما تَقدّمَ مِن ذَنبهِ وما تَأخّر، كما في حَديثِ أنَس وحَديثِ غَيرِه كما عندَ مُسلم وعندَ غَيرِه، أنّه يَستغفرُ اللهَ ويَتوبُ إلى الله سُبحانَه وتَعالى في اليومِ والليلة أو في المَجلِس الواحِد سَبعينَ مَرّةً في بَعضِ الرّواياتِ، ومائةَ مَرّةً في بَعضِ الرّوايات.

هذا المَعصومُ صلّى الله عليه وسلّم، فماذا يَقولُ الذي يُسرِفُ على نَفسِه مِن الخَطَايا والذّنوبِ، ولا حَولَ ولا قوّةَ إلّا بالله.

لذلكَ جَاءَ ورُوي عَن رَسولِ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم، مِن الحَديثِ الذي أخرَجَه الإمامُ التّرمذيّ وابنُ ماجَه والدّارميّ وأحمدُ والحَاكِم وأخرَجَه غَيرُهم أنّه قالَ: «**كُلّ آبنِ آدمَ خَطّاء، وخَيرُ الخَطّائِينَ التّوابُون**».

وقالَ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كما عندَ التّرمذيّ قالَ: «**لو لم تُذنِبوا لَذهَبَ اللهُ بِكم ولَخلَفَ أقوامًا يُذنِبون ويَستَغفرون فَيغفرُ اللهُ سبحانَه وتَعالى لهم**».

كذلكَ جاءَ فيما رُوي عَن الإمامِ الحَاكِم - رَحمهُ اللهُ - وحَسّنه الشّيخ الألبَاني - رَحمه الله - عَن رَسولِ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم أنّ الشّيطَانَ قالَ لله سُبحانَه وتَعالى: «**بِعزّتِك وجَلالِك لأغوينّهم ما دَامَت أرواحُهم في أجسَادِهم**». فقالَ الرّبّ سُبحانَه وتَعالى: «**وعِزّتِي وجَلالِي لأغفِرَنّ لَهم ما دَامُوا يَستغفرُون**».

فإذًا أمرُ الاستِغفارِ وأمرُ التّوبَةِ هَيّنٌ سَهلٌ على مَن سَهّلهُ اللهُ سُبحانَه وتَعالى عَليه، كما جَاءَ في حَديثِ أبي بَكرٍ الصّدّيق رَضي اللهُ عَنه وأرضَاه، الذي أخرَجَه أبو داود والتّرمذيّ والنّسائي وابنُ ماجَه عَن رَسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قالَ: «**ما مِن مُسلمٍ يُذنِبُ ذَنبًا فَيقومُ يَتوضّأ ويُصلّي لله رَكعَتَين ثُمّ يَستغفِرُ اللهَ إلّا غَفرَ اللهُ لهُ**».

قوله (فإنّ هَؤلاءِ الثّلاثَة عُنوانُ السّعادَة):

مَن تَحقّقَت فيهِ هذهِ الأمور، مِن الشّكرِ والصّبرِ والاستغفارِ والتّوبةِ والأوبَة، فإنّه بإذنِ الله يَعيشُ حَياةَ السّعداءِ في الدّارَين، نسألُ اللهَ - سُبحانَه وتَعالى - أنْ نكونَ وإيّاكُم مِن السّعداء.

□

اعلَمْ أرشَدكَ اللهُ لِطَاعَته: أنّ الحَنيفيّةَ مِلّةَ إبراهيم أنْ تَعبدَ اللهَ وحدَهُ مُخلِصًا لهُ الدّين، كمَا قَالَ تَعالى: ﴿وما خَلقتُ الجِنّ والإِنسَ إلّا لِيَعبدُون﴾، فإذا عَرفتَ أنّ اللهَ خَلَقَكَ لِعبادَتِه فاعلَمْ: أنّ العِبادَةَ لَن تُسمّى عِبادَةً إلّا مَع التّوحِيد، كمَا أنّ الصّلاةَ لا تُسمّى صَلاةً إلّا مَع الطّهارَة، فإذا دَخلَ الشّركُ في العِبادَة فَسدَت كالحَدثِ إذا دَخلَ في الطّهارَة، فإذا عَرفتَ أنّ الشّرك إذا خَالَطَ العِبادَة أفسَدهَا وأحبَطَ العَملَ وصَارَ صَاحبُه مِن الخَالِدِين في النّار عَرفتَ أنّ أهمّ ما عَليك مَعرفةُ ذلكَ، لعلّ اللهَ أن يُخلّصَكَ مِن هذهِ الشّبكة وهي الشّركُ بالله الذي قالَ اللهُ تَعالى فيه: ﴿إنّ الله لا يَغفرُ أنْ يُشرَكَ بِه﴾ وذلك بِمعرفَةِ أربعِ قَواعِدَ ذَكرَها اللهُ في كِتابه.

الشرح:

ذَكرَ الشّيخُ – رَحمهُ اللهُ – كمُقدّمة لِهذهِ القَواعِد الأربَع، ذَكرَ أنّ الطّالِبَ وأنّ المُسلم إذا أرَادَ الرّشادَ، وإذا أرَادَ الفَلاحَ، وإذا أرادَ النّجاحَ، فعَليه أن يَعلمَ أنّ الحَنيفيّةَ مِلّةَ إبراهيم أنْ تَعبدَ اللهَ وحدَه مُخلِصًا لَه الدّين، كما قالَ اللهُ تَعالى: ﴿**وما خَلقتُ الجِنّ والإنسَ إلّا لِيعبدُون**﴾.

قوله (اعلَمْ أرشَدكَ اللّهُ لِطاعَته): وبذلك ما أسلفناه وقَدّمناه مِن عَادةِ الشّيخ – رَحمهُ اللهُ – رحمةً واسعة، بالدّعاءِ للقَارِئ ويَكونُ ذلك أنجعَ وأنفعَ للقَارِئ في قَبولِ ما سَيُلقَى عَليه.

دَعا له هاهُنا بأرشَدكَ اللهُ لِطاعَته، أي هَداكَ ووفّقَكَ لما فيه هُداك ورَشادِك.

قوله (اعلَمْ أنّ الحَنيفيّةَ مِلّةَ إبراهيم): وهذا مِن عَقدِ البَيانِ، الحَنيفيّة هي مِلّةُ إبراهيمَ عَليه السّلام، التي أُمِرَ سَيّدنا ورَسُولُنا صلّى الله عليه وسلّم باتّباعِها، وأُمِرنَا باتّباعِها، ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ**﴾

قوله (كمَا قَالَ اللّه تعالى: ﴿وما خَلقتُ الجِنّ والإنسَ إلّا لِيعبدُون﴾):

ومعنى يَعبدُون أي يُوحّدُون اللهَ سُبحانَه وتَعالى في العِبادَة، كما سَيأتي مَعنا في هذهِ القَواعِد أنّ الأنبياءَ والرّسلَ والكُتب التي أَنزلَها اللهُ سُبحانَه وتَعالى، إنّما أُنزِلَت الكُتب وأُرسِلَت الرّسلُ، لأجلِ هذا النّوعِ مِن التّوحِيد، وهو تَوحيدُ العِبادَة، أنْ يُعبدَ اللهُ سُبحانَه وتَعالى ولا يُشرَك مَعه غَيرُه.

كما قالَ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الصّحيحَين مِن حَديثِ مُعاذ بن جَبل رَضي اللهُ عَنه وأرضَاه: «**أتَدري ما حَقّ اللهِ عَلى العِباد وما حَقّ العِبادِ على الله؟ قالَ: اللهُ ورَسولُه أعلَم؟ قالَ: حَقّ اللهِ عَلى العِباد أنْ يَعبدوه ولا يُشركُوا بِهِ شَيئا**».

أي لا يَصرفُوا أيّ نَوعٍ مِن أنواعِ العِبادَة لِغَيرِ الله سُبحانَه وتَعالى، وحَقّ العِبادِ عَلى الله، إذا هُم فَعلوا ذلكَ ألّا يُعذبَ مَن لا يُشرِكُ بِهِ شَيئا.

قوله (إذا عَرفتَ ذلك): إذا عَرفتَ أنّ اللهَ خَلقَكَ لِعبادَته فاعلَمْ أنّ العِبادَة لا تُسمّى عِبادَةً لله إلّا بالتّوحيدِ الخَالِص، أمّا إذا طَرأَ عَليها الشّركُ، إذا طَرأَ عَليها بَعضُ نَواقِضِ الإِسلام، فهذهِ العِبادَةُ وغَيرُها مِن العِبادات، كُلّها تَأتي يومَ القِيامَة هَباءً مَنثورًا.

كما قالَ – سُبحانَه وتَعالى – عَن أعمالِ الكَافِرين: ﴿**وقَدمنا إلى مَا عَملوا مِن عَمَلٍ فَجعَلنَاهُ هَباءً مَنثورًا**﴾، وقال: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَة﴾.

وقالَ: ﴿**ولقد أُوحي إليك وإلى الذينَ مِن قَبلِكَ لَئنْ أَشرَكتَ لَيَحبَطَنّ عَمَلُك**﴾. وقالَ تعالى: ﴿**ولو أشرَكُوا لَحَبِطَ عَنهُم مَا كَانُوا يَعمَلُون**﴾.

فإذًا الذي يُشرِكُ باللهِ سُبحانَه وتَعالى، وإنْ كانَ يَعبد اللهَ – سُبحانَه وتَعالى – فإنّ هذهِ العِبادَةَ لا تُقبَلُ مِنه، كما أنّ جَميعَ الأعمالِ الصّالِحَة لا تُقبَلُ مِنه.

فلابُدّ إذًا أنْ نُرَكّزَ عَلى هذا الجَانِب ونَهتمّ بِهِ، ألا وهو: أنّ الشّركَ يُحبِطُ جَميعَ الأعمَال، ونَعنـي بالشّركِ هُنا الشّرك الأكبَر.

قوله (كما أنّ الصّلاةَ لا تُسمّى صَلاةً إلّا مَع الطّهارَة......):

وضَربَ مِثالًا تَوضيحيًّا لِيقرّبَ هذا الأمـرَ فقـالَ: كـما أنّ الصّـلاةَ لا تُسـمّى صَـلاةً إلّا مَـع الطّهارَة.

إذًا هذهِ الصّلاة التي هي عَمودُ الدّين، كما قالَ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، كما عندَ مسلِم مِن حَديثِ مُعاذ: «**ألا أدلّكَ على أصلِ الأمرِ وعَمـوده وذروة سـنامه، قـالَ: رَأسُ الأمـرِ الإسـلامُ، وعَمودُه الصّلاة وذُروَةُ سَنامِهِ الجِهادُ في سَبيلِ الله**».

هذهِ الصّلاة مُتكوّنَة ولا تَصحّ إلّا بِمَجموعَةٍ مِن الأعمالِ والأقوالِ والاعتِقادَات.

فإذا أتَيتَ أيّها المسلم بها وأقَمتَها بِكلّ ما جَاءَ في أركَانِها وشَروطِها، فعندَ ذلـكَ تَصـحّ مِنـكَ الصّلاة.

أمّا إذا جَاءَ بِها الإنسانُ بِكلّ هذهِ الأركانِ وبِكلّ هذهِ الشّروط، ثُمّ طَرأَ عليه نَقضُ الطّهـارة، فإنّ هذهِ الصّلاة لو صَلّاها مئةَ رَكعَة لا تَصحّ مِنه هذهِ الصّلاة.

لأنّه قد أخلّ بأمرٍ مِن شُروطِها، قد نَقضَ الصّلاةَ بنَاقِضٍ واحِدٍ مِن نَواقِضِ الطّهارة.

فالطّهارَةُ الصّغرى بِنَوعَيها سَواءٌ منها ما يعني بِرَفعِ الحَـدَثِ الأصـغَر أو الأكـبَر، هـذهِ هـي الطّهارَة الصّغرى، إذا فَسدَت وإذا ارتكبَ الإنسانُ ناقضًـا مِـن نَواقِضـها فإنّهـا لا تَصـحّ مِنـه، ويَنتجُ عَن ذلك أنّه لا يَصحّ كلّ ما لا يَصحّ إلّا بِها، كلّ ما تَوقّفت صحّته عَليها كالصّلاة.

إذًا الصّلاة لها شروط ولها أركان، فإذا أخلّ الإنسانُ بشرط من شروطها كالطهارة بـأن يـأتي بِناقضٍ مِن نَواقِض الطّهارة، فصلاتُه إذًا فَاسِدة، سـواءٌ مـن الحَـدثِ الأصـغَر أو مـن الحَـدثِ الأكبَر.

كذا بقيّة العِبادات كالحَجّ مثلًا، الحَـجّ لا يَصـحّ مـن الإنسـان، إلّا بمجموعـةٍ مـن الأفعـالِ والأقوالِ والاعتقادات، ولكن يَنقُضُ الحَجّ بناقِضٍ واحدٍ من نَواقِضِ الحَجّ.

كما أنّ الصّلاة لا تَصحّ كما أسلفنا إلّا بِمجموعَةٍ من الأقوالِ والأفعال والاعتقادات، ولكـن تَبطلُ الصّلاة بناقِضٍ واحدٍ من نَواقِضِ الصّلاة.

كما يُقالُ مثلًا في الصّيام، فالصيام له شروط وله أركان يأتي بهـا الإنسـان، فـإذا أتـى بنـاقضٍ واحدٍ من نواقِضِ الصّيام، انتَقَضَ صيامُهُ ولا يَنتفعُ بذلك الصّيام، وإن استمرّ عـلى الإمسـاك، أو استمر عَن تَركِ محضورَاتِ الصّيام.

فإذا أتى بِناقِضٍ فَصيامُهُ بَاطِل، إذا أتى بنَاقضٍ من نواقضِ الصّلاة، فصَلاتُهُ بَاطِلـة، إذا أتـى بناقضٍ من نواقضِ الطّهارة، فَصلاتُهُ باطِلَة، إذا أتى بناقضٍ من نـواقضِ الحَـجّ فحَجّـهُ بِاطـل، كذلك يُقالُ كما قلنا في الطّهارَة الصّـغرى، نَقـولُ في الطّهـارة الكُـبرى وهـي التّوحيـدُ، وهـي الإِسلام ﴿إِنّما المُشرِكُونَ نَجَس﴾

تِلكَ النّجاسَة الكُبرى، نَجاسةُ الشّـركِ أعَاذَنـا اللهُ وإيّـاكُم مِـن تِلـك النّجاسَـة ومِـن ذلـك الرّجس والنّجس.

فكما هنا في الطّهارة الصّغرى نواقضُ كذلك في الطّهـارَة الكُـبرَى نـواقِض، كـما يَجِـبُ عـلى الإنسانِ أن يَتعلّم نواقِضَ الطّهارةِ الصّـغرى لِيَجتَنـبَ تِلـك النّـواقض ويُحـافِظَ عـلى طَهارَتِـهِ

ويُحافِظ على صَلاتِهِ، فمِن بابٍ أولى عليه أن يُحافِظَ على طَهارتِه الكُبرى، عليه أن يَتعلّمَ ما يُناقِضُ طَهارتَه الكُبرى، ما يُناقِضُ رَأسَ مالِ المُسلم، ما يُناقِضُ التّوحيد، ما يُناقِضُ الإسلامَ، ما يُناقضُ الإيمان.

فعَلينا جَميعًا أن نَهتمّ بهذا الجَانِبِ غايةَ الاهتمام، لكي نَحذَر مِن ذلك، وكما جاءَ في الصّحيحَين من حَديثِ حُذيفةَ رضي الله عنه وأرضاه أنّه قالَ: «**كانَ النّاس يَسألونَ رَسولَ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم عَن الخَير، وكُنتُ أسألُه عَن الشّر مَخافَةَ أن يُدرِكَني**».

عَرفتُ الشّرّ لا للشّرّ ولكن لِتوقّيه ومن لا يَعرفُ الشّرّ مِن الخَيرِ يَقعْ فيه

فيجبُ عَلينا أن نتعلمَ هذهِ القَواعدَ حتّى لا نَقعَ في الشّركِ بالله سُبحانَه وتَعالى، فإنّ هذِهِ القَواعدَ هي قواعدِ للتّوحيدِ، وهي قَواعدُ للتّحذيرِ من الشّرك والتنديد هذا الشرك، الذي كما أسلفنا أنّه مَن ارتكبَ هذا الشّرك يُفسدُ جَميعَ أعمالِه الصّالحة، ويُبطلُ تِلك الأعمال.

قوله (إنّ اللّهَ لا يَغفرُ أن يُشركُ بِهِ):

كذلك ممّا يَحصلُ بالشّرك والعياذ بالله أنّ اللهَ سُبحانَه وتَعالى يُخلّدُ المشركَ بالنّار، كما استدلّ الشّيخ رَحمهُ الله ﴿**إنّ اللهَ لا يَغفرُ أن يُشركُ بِهِ ويَغفرُ ما دُونَ ذلك لِمَن يَشاء**﴾.

إذا ارتكبَ الإنسانُ بعضَ الشّهوات من المَعاصي والمُوبقات، من الصّغائرِ ومن الكبَائرِ ومات على ذلك ولم يَتُبْ منها، فهو في مشيئة الله سبحانه وتعالى، إن شاءَ عذّبه بعدله، وإن شاءَ أدخَلَه الجنّة بفضلِه، وإن عذّبه سُبحانَه وتَعالى بالنّار على تِلك المَعاصي وعلى تِلك الذّنوب، إلّا أنّ الله سُبحانه وتَعالى قد يُخرجُه من النّار بِشفَاعَة الشّافِعِين.

فإن لم يَخرُجْ بشفَاعَة الشّـافعِين، أخرَجَـه اللهُ سُـبحانه وتعـالى بِرحمَـةِ ربّ العَـالِمين، سُـبحانه وتَعالى، بعدَ أن يُعاقِب بالنّار هذا المُذنبَ أو العَاصي أو الفَاسِق ما لم يَخرُج من المِلّة.

أمّا المشركُ الذي يَخرجُ من المِلّة والعياذ بالله، فاللهُ سبحانَه وتَعالى قد وَعَدَ وتَوعد أنهّ لا يَغفـرُ أن يُشرَكَ بِهِ، (**إنّ اللهَ لا يَغفرُ أنْ يُشرَكَ بِهِ**)، كذا لا يَدخلُ الجنّة والعياذُ بالله.

نَسألُ اللهَ سُبحانَه وتَعالى أن نَكونَ وإيّاكم من أهلِ الجنّة، (**إنّه مَن يُشرِـك بـاللهِ فقـد حَـرّمَ اللهُ عليهِ الجنّة**).

فإذا عَلمنا ذلك عَلمنا خطورَةَ الشّرك وهو:

أوّلًا: يُفسدُ جَميعَ الأعمالِ الصّالحة.

وثانيًا: يُدخلُ صَاحبَه النّار والعياذ بالله.

وثالثًا: يُحرَمُ بِسبب ذلك الشّرك من دُخولِ جنّة الخُلد، نسألُ اللهَ سُـبحانَه وتَعـالى أن يَجعَلنـا من أهلِ جنّة الخُلد.

قوله (عَرفتَ أنّ عَليك مَعرفة ذلك، لعلّ اللّهَ أن يُخلّصكَ من هذهِ الشبكة):

شَبّه الشّركَ بالله سُبحانه وتَعالى والشّرك مَع الله سبحانه وتَعالى، بالشّـبكة التـي يَصـطادُ بهـا الطّيورُ والأسماكَ، فتكونُ هذهِ الشّبكة سببًا في هَلاكِ هذهِ الطّيور أو تِلك الأسماك أو غَيرها.

كذلك الشّرك يكونُ كالشّبكة بِهلاكِ مَن يَقع فيـه والعيـاذ بـالله، نَجّانـا اللهُ سُـبحانَه وتَعـالى وإيّاكم مِن هذهِ الشّبكة.

قوله (وذلك لِمعرِفَةِ أربَعِ قَواعِدَ ذَكرَها اللّهُ تعالى في كِتابِهِ):

أي أنّ هذهِ القَواعِدَ ليسَت من كيسِ الشّيخ، وليسَت من عنديّات الشّيخ، وإنّما استَسقَاها الشّيخ واستَخلَقها واستَظهرَها وأخذها واستخلصها مِن كِتابِ الله، ومِن سُنّة رَسوله صلّى الله عليه وسلم، باستقراءِ الكِتاب واستقراءِ السنّة، واستقراءِ السّيرة، استقراءَ الحافِظِ وليسَ العَابِرِ عبورًا.

فعَلينا إذًا أن نَقفَ مع هذهِ القَواعد وأنْ نَحفظَ هذهِ القواعدَ، حتّى نَعملَ بها، وحتّى نكونَ من الموحّدِين، وحتّى نَحذَرَ من الشّركِ والمشرِكين.

القاعدة الأولى:

أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ -تَعَالَى- هُوَ الْخَالِقُ، الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الإِسْلامِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ**﴾ [يونس: 31].

الشرح:

هذهِ قاعدةٌ جَليلةٌ عَظيمة في التّوحيدِ وفي التّحذيرِ مِن الشّرك والتّنديد.

يُبيّنُ الشّيخُ فيها أنّ الْمُشرِكينَ الذينَ بُعثَ فيهم النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وقاتَلَهم، كانوا يُقرّون بِربوبيّة الخَالِق – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –.

وإنكارُ ربوبيّة الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – وأنّ اللهَ هو الخَالِق الرّازِق الْمُدبّر الْمُحيي الْمُميت الْمُشرّع الحَكَم، هذا لم يُعرَف قَطّ في أحدٍ مِن النّاس مِن الخَلقِ إلّا في نَوادِرَ مِن البَشَر.

حتّى إِبليس الذي تَوعّد بِإِضلالِ وغِوايةِ الخَلق كانَ يُؤمِنُ بربوبيّة الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – ويُوقِنُ بأنّ الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – هو الخَالِقُ هو الرّازِق، لا خَالقَ سِواه ولا رَازِقَ سِواه إلى غَيرِ ذلك مِن مَعاني الرّبوبيّة.

قالَ: ﴿**قَالَ ربِّي فأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ فتأمّلوا وقِفُوا وَقفَاتٍ مَع قَولِ إِبليس فيما ذَكَرَه اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – عنه.

قالَ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – على لِسانِ إِبليس قالَ: ﴿ **قَالَ ربِّي فأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾

أولًا: قالَ رَبّ، فأثبتَ الرّبوبيّة للهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – أثبتَ بأنّ اللهَ هو الرّبّ بِكُلّ ما تَتضمّن هذهِ الكَلمة مِن مَعاني.

بإثباتِ أنّه الخَالِق الرّازِق المُحيي المُميت المُدبّر إلى غَيرِ ذلك.

ثُمّ دَعَا اللهَ بِغَيرِ واسِطَة، قالَ: رَبّ، لم يَدعُ مِن دونِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أحدًا، لم يدعُ الأولياءَ أو الأنبياءَ أو المَلائِكة أو غَير ذلك قالَ: رَبّ فدَعَا اللهَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – مِن غَير واسِطَة.

ثُمّ قالَ: ﴿**فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾ فإبليسُ يُؤمنُ ويُقرّ بالبَعثِ كذلك إلّا أنّه ارتَكبَ نَاقِضًا مِن نَواقِضِ التّوحيد وهو الاستكبَار. رَفضَ أنْ يُطيعَ الجَبّار – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – استكبارًا وعُلوًّا عَلى أوامِرِ اللهِ جَلّ في عُلاه.

إذًا حتّى أبو الجِنّ إبليس كما جاءَ في بَعضِ الرّوايات يُؤمِنُ بِربوبيّة اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – ولم يَكنْ كُفر إبليسَ مِن قَبيلِ جُحودِهِ بربوبيّة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وإنّما كانَ كُفرُ إبليسَ في نَقضِهِ لِتَوحيدِ الألوهيّة، أنّه استكبَرَ عَلى طَاعَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

بل حتّى فِرعَون الذي قالَ أنا رَبّكُم الأَعلى، قالَ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – عَن فِرعَون وعَن قَومِ فِرعَون: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**﴾[النمل:14].

إذًا فِرعَونُ ومَن مَعه جَحَدوا باللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – مع استيقَانِهم أنّ اللهَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – هو الخَالِق، هو الرّازِقُ، هو المُحيي، هو المُميت.

ولَنا أنْ نَقفَ مَع هذهِ الآية وَقفَة حِينما قَالَ: أنا رَبّكُـم الأعَـلى، هـل يَعنـي فِرعَـون بأنّـه هـو الخَالِق، لو عَنى وقَصَدَ ذلك لَمَا صَدّقه أحَد، إذ أنّ الخَلقَ مَوجودٌ قَبلَ أنْ يُوجَد فِرعَون.

وإنّما مِن المَعاني التي قَصَدَها أنّه هو الحَاكِمُ، وأنّه هو المُشرّـعُ، وأنّـه هـو المُـدبّر وإليـه يَرجِـعُ التّشريعُ والحُكمُ والتّدبيرِ ونَحو ذلك.

فهو ادّعى ما يُسمّى اليومَ بأحقيّةِ التّشرـيعِ ونَحـو ذلـك في ادّعائِـهِ بالرّوبيّـة وإلّا فـإنّ اللهَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – ذَكرَ أنّهم يُوقنونَ بربوبيّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كذا اليَهودُ والنّصارى، وكذا غَيرُهم مِن المِلَلِ والنّحل يُؤمنونَ بربوبيّةِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَـالَى –.

ولم يُنكِرْ ربوبيّة الخَالِق مِن البَشرِ إلّا النّزرَ اليَسير كما أسلَفنا وأشَرنا ما يُسمّونَهم بالدّهريّين أو مِن المُعاصِرين الشّيوعيّين أو المُلحِدين، هؤلاءِ الذينَ يُؤمنونَ بأنّه لا خَالِقَ – والعِياذُ بالله – كما يَقولُ الشّيوعيون: الحَياةُ مادّةٌ ولا إلَه.

هكذا يَقولون، وهؤلاءِ مِن أَحطّ البَشرِ وأسفَلِ الخَلقِ والعِياذُ بالله.

ذلك الرّجلُ المُلحِد لَمّا أرَادَ أن يُناظرَ أحدَ أئمّةِ المسلمين وهو الإمـامُ الـنّعمان وأعنـي بِـهِ أبـا حَنيفةَ فاتّفَقَا على مَوعدٍ للمُناظرة، وأن يَحضرَ الجَمـعُ مِـن المسـلمينَ، يُشـاهدون هـذهِ المُنـاظَرة ويحضرونها، فلمّا كانَ مِن الغَد في اليومِ الذي اتّفقُوا فيهِ وعَليهِ تَأخّرَ الإمامُ أبـو حَنفيـةَ الـنّعمان، فقالَ ذلك المُلحِد: قد فَرّ صَاحبُكُم.

انتَظروا فَطَالَ الانتظارُ حتّى أقبلَ الإمامُ أبو حَنيفةَ – رَحِمَهُ اللهُ – قالَ لهُ: ما أَخّرك عَن مَوعِـد المُناظرة؟ قالَ: كُنتُ في الشّطّ الآخَرَ مِن النّهر أَردتُ أن أَعبرَ، أنتظرُ سَفينةً أو قاربًا فلم أَجِدْ.

وبينما أنا عَلى تِلك الحَالَة رَأيتُ شَجرةً تَتقَطعُ لوَحدِها هكذا، ثُمّ تَكونُ هذهِ الأخشابُ وتَلتَصقُ ببَعضِها البعض، وتَأتي المَساميرُ والحِبالُ فَتُوضعُ المَساميرُ وتُلَفُ الحِبالُ هكذا لوحدها، فَتَعجّبتُ لذلك المَنظَر فأردتُ أن أَتَأمّلَ فيه إلى أن أتَت بَعضُ الأخشابِ وكانَت كالمَجَاديف، فرَكبتُ في ذلك القَارِب ثُمّ أتَيتُ إليك.

فقالَ: لا تَكذِب وانظروا إلى صَاحِبكُم هذا الكَاذِب، كيفَ لسَفينةٍ أن تَترَكّبَ لِوحدِها؟

فقالَ الإمامُ أبو حَنيفةَ: سبحانَ الله! لا تُصدّقُ أنّ سَفينةَ تَتكوّنُ لوَحدَها دونَ صَانِع، وتُصدّقُ وتَزعُم أنّ هذا الكَونَ برمّتِهِ قد خُلقَ مِن دونِ صَانِع، فبُهتَ الذي كَفَر.

إذًا وجودُ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – ووجودُ الخَالِق جَلّ في عُلاه أمرٌ جُبِلَ عَليه البَشرُ، وفُطِرَوا عَليه كما جاءَ عندَ مسلم: «**كُلّ مَولودٍ يُولَدُ عَلى الفِطرَة فأبواه يُهوّدَانِه أو يُنَصّرَانِه**»، وفي رِواية «**أو يُمَجّسانِه**».

ما قال: أو يُؤسلمانِه؛ لأنّ الإسلامَ هو دِينُ الفِطرَة.

فأولئك الذين جَحَدوا الرّبوبيّة أصحابُ فِطَرٍ مُنتكِسَة مُرتَكِسَة والعياذُ بالله.

أمّا العَربُ في جَاهليّتهم الجَهلاء فلم يَكونوا بِمَعزِلٍ عَن بَقيّة المشركين والكَافِرين في العَالَم، لم يَكنْ شِركُهُم وكُفرهم مِن بابِ جُحودِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كيفَ وهُم في أَصلِهِم كانُوا عَلى مِلّةِ الخَليل إبراهيم عليه السلام؟! على مِلّة شَيخِ المِلّة.

مَكثوا رِدحًا مِن الزّمنِ عَلى التّوحيد إلى أن جاءَ عَمرو بنُ لُحَي وأتى بالأصنامِ مِن الشّام كما جاءَ في المُوالاة كما عندَ البُخاريّ وعندَ غَيره.

استَحسنَها وأتى بها، فعَبدوها مِن دونِ الله، أشرَكوا في عِبادَة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مَعه وسَيّبوا السّوائِب.

فكانَ عَمرو الذي أتى بالأصنامِ كما قالَ النّبيّ سَيّدُ الأنامِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَآهُ يَجرّ قَصبَةً في جَهنّمَ والعِياذُ بالله.

بعدَ ذلك انتَشرَ الشّركُ عندَ العَربِ مَع إيمانِهم بربوبيّة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - كانوا مثلًا يَحجّون البَيتَ الحَرَامَ فيَقولون: لَبيكَ اللهمّ لَبيك، لَبيكَ لا شَريكَ لكَ لَبيك، إلّا شَريكًا هو لَك تَملكُهُ وما مَلَك.

إذًا يُؤمنونَ بالله (لبيك اللهمّ لبيك). وكانوا يَقولون: باسمكَ اللهمّ. وهكذا كما في الوثيقةِ في حِصارِ النّبيّ ومَن مَعه في شِعبِ أبي طَالب، (باسمكَ اللهمّ)، وكذا في صُلحِ الحُديبية (باسمك اللهم)، كما في الصّحيحَين فيُؤمنونَ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل ويُقسمون بالله ويتسمّون بالتّعبيدِ لله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - كما هي الحَالُ مَع والِدِ النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فنبيّنا هو محمّد بنُ عبد الله.

وهذا عبدُ المُطّلب لَمّا حَصلَ مِن أمرِ أبرهة الحَبَشيّ في إرَادَته لهَدمِ الكَعبَة قالَ: هذهِ إبِلي، وأنا رَبّ الإبل، وللبَيتِ رَبّ يَحميه. هكذا قالَ عبدُ المطّلب وهو على الشّرك والإشراك ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾.

اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- كذلك يقول: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾[الزخرف:87].

فإذًا هم يُقرّون بربوبيّة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يُقرّون بأنّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - هو الخَالِق، هو الرّازقُ، هو المُدبّرُ، هو المُحيي، هو المُميتُ إلى غير ذلك مِن صِفاتِ الرّبوبيّة.

ولكنّهم أشرّكوا بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - في الألوهيّة، صَرفُوا العِبادةَ لغَير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، جاءَ عندَ التّرمذيّ بإسنادٍ صَحيحٍ عَن عِمران بن حصين عَن أبيهِ حُصين أنّ النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَأَلَ حُصيناً فَقَالَ لَه: «كم تَعبد اليومَ إلهًا؟ فقَالَ: سَبعَة. ستةً في الأرضِ وواحدًا في السّماء». فقالَ لَه النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «ماذا أعدَدتَ لِرَغبَتك ورَهبَتك؟ قالَ: الذي في السّماء».

فهُم يُؤمنون بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ولَكنّهم يَصرفُون أنواعَ العِبادَة لغَيرِ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يُصلّون لغَيرِ الله، ويَذبَحون لغَيرِ الله، ويَحجّون لغَيرِ الله، ويَدعُون غَيرَ الله، ويَستَعينُون بغَيرِ الله فيما لا يَقدرُ عَليهِ إلّا الله، ويَستغيثُون بغَيرِ الله جَلّ في عُلاه، وهكذا في كُلّ أصنافِ العِبادَة يَصرفُونَها لغَيرِ الله، يَحلفُون تَارةً بالله وتَارةً باللّاتِ ومَنَاة وهُبَل، يَتحَاكَمون إلى غَيرِ شَرعِ الله، يَتحَاكَمون إلى الكَهَنَة والكُهّان إلى غير ذلك مِن أصنَافِ العِبادَة وألوانِ العِبادَة وأقسامِ العِبادَة ليَصرِفُوها لغَيرِ الله.

إذًا ليسَ مِن الصّحيحِ، وليسَ مِن الصّحّة في شيء أن يُعرّفَ المُعرّف لـ (**لا إله إلّا الله**) بِقَولِه: لا خَالِقَ إلّا الله، فهذا تَعريفٌ خَاطِئ وإن كانَت (لا إله إلّا الله) تتَضَمّن لهذا المَعنى أن لا خَالِقَ إلّا الله.

ولَكن ليسَ (لا إله إلّا الله) مُرادِفَة لـ (لا خَالِقَ إلّا الله) كما يَصنَع الكَثيرُ مِن المُتكلّمين والنّظَار لاسيّما مِن المُعاصِرين مِن المُثقّفين ونَحوهم.

يَقولُون: (لا إله إلّا الله) أي أنّ اللهَ هو الخَالِقُ لا خَالِقَ سِواه، هو الرّازِقُ لا رَازِقَ سِواه وهكذا، ثُمّ يُعَرّفون الشّركَ الذي هو مُضادُ للتّوحيدِ بأنّ الشّركَ أن يَجعَلَ الإنسانُ خَالقًا غَيرَ الله أو رَازِقًا غَيرَ الله، وأن يَعتَقدَ أنّ ثَمةَ في الكَونِ مَن يَخلُقُ ويَرزُقُ ويُحيي ويُميتُ غَيرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا نعم مِن أقسامِ الشّرك، ولَكن ليسَ الشّرك هو هذا المَعنى، وليسَ التّوحيد هو ذلك المَعنى الذي قَصدُوه وقَرّرُوه ونَظّرُوه في كُتبهم.

بل مَعنى (لا إله إلّا الله) هو لا مَعبودَ بِحقٍّ إلّا الله، فقُريشٌ والعَرب الذينَ نَزلَ القُرآنُ بِلسانِهم لو كانوا يَفهمون مِن (لا إله إلّا الله) أي لا خَالقَ إلّا الله لاستَجَابُوا جَميعًا لِدعوةِ النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ لأنّهم يُؤمنون بأنّ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - هو الخَالِق.

لو كانُوا يَفهَمون مِن هذهِ الكَلمة ذلك المَعنى لَمَا امتَنعوا عَن الاستِجابَة لِمَا جاءَهم بِهِ رَسولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ولكنّهم فَطنوا مِنها وعَلمُوا مِنها ما لم يَعلمْه أولئك المُتكلّمون وأولئك المُتفلسِفُون، عَلموا أنّ (لا إله إلّا الله) تَعني لا مَعبودَ بِحقٍّ إلّا الله وهذا يُعارِضُ ما هُم عَليه مِن صَرفِ أنواعِ العِبادَة لغَيرِ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ولذلك امتَنعُوا عَن ذلك، وقَاتلُوا على ذلك، ولذلك قُتِلَ مَن قُتِل مِنهم على ذلك ودُونَ ذلك، لأنّهم كَانُوا يَصرفُون أنواعَ العِبادَة لغَيرِ الله. ولو كَانَ الكُفرُ والشّركُ هو أنْ يَقولَ الإنسانُ بأن ثَمّ في الكونِ خَالقًا غَيرُ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَمَا كَفرَ أبو جَهل ولا أبو لَهَبٍ ولا غَيرُهما.

هؤلاءِ يُقرّون بأنّه لا خَالِقَ في الكَونِ إلّا الله، ولا رَازِقَ إلّا الله، ولا رَبّ إلّا الله، فامتَنعوا لأنّهم يَعلمُون مِن لِسانِهم أنّ الإلَه شَيءٌ والرّبَّ شَيء.

الإلهُ هو المَألوه المَعبود، فهُم يَصرفُون أنواعَ العِبادة لغَيرِ الله جَلّ في عُلاه ولذلك امتَنعُوا عَـن الامتثال لشَرعِ اللهِ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – وعَن اتّباعِ النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فسُحقًا وقُبحًا لِمَن كانَ أبو جَهلٍ وأبو لهبٍ أفقَهُ مِنهم في مَعنى (لا إله إلّا الله).

فهناك أناسٌ يُؤمنُون ويَقولُون: (لا إله إلّا الله) ولا يَفقَهون مَعناها.

وهناكَ أُناسٌ لا يَقولُون (لا إله إلّا الله) ويَفقَهُون مَعناها.

فإذًا نَقولُ: (لا إله إلّا الله) مَعناها لا مَعبودَ بِحَقّ إلّا الله. ونَقولُ: بِحقّ.

أمّا لو قالَ قَائلٌ: لا مَعبودَ إلّا الله، فهذهِ الجُملةُ تَحتَملُ الإصابَة وتَحتملُ الضّـلالَة بـل الكُفـرَ المُبينَ والعِياذُ بالله.

لو قالَ قائِل: (لا إله إلّا الله) أي لا مَعبودَ إلّا الله، فهذا الكَلامُ مِنه مُحتَمل إن قَصـدَ وقَـدّر أي لا مَعبودَ بِحقّ فهذا كما أسلفنا.

أمّا إن قَصدَ المَعنى الآخَرَ الذي يَقولُ بِه غُـلاةُ الصّـوفيّة مَـن الحَلوليّـة وأضرابِهـم وأمثـالِهم وأشياخِهم (أن لا مَعبودَ إلّا الله) أي لا مَعبودَ في هذا الكونِ إلّا الله، فمَن عَبدَ البَقرَ والعِياذُ بالله فذَاكَ الله، ومَن عَبدَ الشّجرَ فذاكَ الله، ومَن عَبدَ الأحجارَ فذاكَ الله – والعِيـاذُ بـالله– تَعـالى اللهُ عَن قَولِهم عُلوًّا كَبيرًا.

يَزعمُون ويَقولُون بأنّ اللهَ حَلّ في مَخلوقاتِه والعِياذُ بالله، وهؤلاءِ أكفَرُ مِن اليَهودِ والنّصارَى.

فاليَهودُ قَالوا بِحلولِ الله– والعِياذُ بالله – في شَخصٍ واحدٍ هـو عُزَيـر، والنّصـارى قـالوا – والعياذُ بالله– بِحُلولِ الله في شخصٍ واحدٍ وهو عيسى تَعالى اللهُ عَن قَولِهم عُلوًّا كَبيرًا.

أمّا هؤلاءِ كابنِ عَربيّ والحَلّاج وأمثالِهم، وابنُ عَربيّ صَاحِبُ الفُصوصِ مُحي الدّين الذي هو (مُحي الشّرك ابن عَربي)، وليس المقصودُ بهِ الإمام أبو بَكرٍ بن العَربيّ المَالكيّ رَحِمَهُ اللهُ.

بل نَعني بهِ ابن عَربيّ صَاحِبُ الفُصوص ذلك الذي قـالَ بـالحُلولِ والعِيـاذُ بـالله قـالَ: ومـا الكَلبُ والخِنزيرُ إلّا إلهُنا. هكذا قالَ والعِياذُ بالله، وقالَ ما في الجُبّة إلّا الله، والعياذُ بالله.

فإذًا قالُوا بأنّ كُلّ ما في الوجودِ هو اللهُ، والعِياذُ بالله تَعالى اللهُ عَن قَولِهم عُلوًّا كَبـيرًا. وبِـذلك وعَلى قَولِهم لا يَكفُرُ عُبّادُ البَقَر ولا عُبّادُ الفِئران وعُبّادُ الأحجارِ ولا عُبّادُ الأشجارِ ولا غَيرُهم. إذ أنّهم عَلى قَولِهم - والعِياذُ بالله - كُلّهم يَعبدُون اللهَ والعِياذُ بالله.

إذًا هؤلاءِ مِن أضَلّ خَلقِ الله، لذلك قالَ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميّة - رَحِمَهُ اللهُ -: هُم أكفَرُ مِـن اليَهودِ والنّصارَى. وذَهبَ الشّافعيّة - رَحِمَهُم اللهُ - إلى أنّه مَن لم يُكفّرْ ابنَ عَـربيّ وطَائفتَـه فهـو كَافِر كما نَصّ على ذلك غَيرُ واحدٍ مِن أهلِ العلمِ كالإمام السخاويّ - رَحِمَهُ اللهُ - وغَيره.

القَاعِدَةُ الثَّانِيَة:

أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلا لِطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ، فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: 3].

وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ﴾ [يونس:18].

وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ.

فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلا اللهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:254].

وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ، وَالشَّافِعُ مُكَرَّمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ مَنْ رَضِيَ اللهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255].

الشرح:

قوله: (إنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إِلا لِطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ).

هذهِ هي القاعدةُ الثّانية، وهذهِ قَاعدةٌ جَليلَة عَظيمَة، عَليكَ أيّها المُوحّد، عَليك أيّها المُسلم أن تفهمَ وتَعي أنّ أولئك الذينَ بُعثَ فيهم النّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِن المشركين، والذينَ قَاتَلهم النّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – على هذا الدّين، لمّا أشرَكوا ولمّا صَرَفوا بعضَ أنواعِ العِبادةِ لغَيرِ الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – ما فعلوا ذلك عِنادًا واستكبارًا على الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – ما فَعلوا ذلك إنكارًا وجُحودًا لوجودِ الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – بل كانَت عندَهم بعضُ التّأويلات في ذلك، أنّهم ما يَعبدون تِلك المُجسّمات لأولئك الصّالحين أو لأولئك الأخيارِ إلّا ليُقرّبونا إلى الله زُلفَى.

هُم يَقولون نَحنُ لا نَعبُدهُم لأنّهم يَعتقدونَ أنّ تِلك الأصنام تَخلُقُ مِن دونِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أو تَرزقُ مِن دونِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل يَعبدونَهم ويَصرفون لَهم أنواعَ العِبادةِ مِن دونِ الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – بهذهِ الحُجَج وبهذهِ التّأويلات البَاطِلة.

إذًا نَخلُصُ إلى أنْ نَقول: ليسَ كلّ كَافرٍ مُعانِد، بل قد يَكونُ هُناكَ مِن الكَفَرة مَن كَفَرَ عَن جَهلٍ، كَفرَ عَن إعرَاض، كَفرَ عَن تَأويلٍ ليسَ بِمُستَساغ والعِياذُ بالله.

فهُناكَ مِن الكُفّار وما مِن كَافِرٍ إلّا ويَتأوّل لِنَفسه إلّا ويَحتَجّ لِنَفسه بِبعضِ الاحتجَاجَات البَاطِلَة السّاقِطة لِتَصحِيحِ ما هو عَليه مِن الكُفر والشّرك والضّلال.

ليسَ كَتأويلاتِ أهلِ الزّندَقة كَقولِ إبليسَ ومَن قد وَافَقَه، فإبليسُ تأوّلَ لِنَفسه: أنا خَيرٌ مِنه، خَلقتَني مِن نَارٍ، وخَلقتَه مِن طِين، فَيقولُ الإمامُ سَعيدُ بنُ جُبير –رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى–: «أوّل مَن

قَاسَ في مَوطِن النّصّ إِبليسُ» إذًا كُلّ مَن يَقيسُ في مَوطِن النّصّ، وفي حُضورِ النّصّ، إذا حَضرَ الأثَر بَطلَ النّظر.

الذي يَقيسُ ويَتحَجّج بآرَاءٍ مُختلفة مَع وجودِ الكِتابِ والسنّة فهذا قد ضَاهى إِبليس، هذا قد اقتدى بإِبليس الذي رَدّ كلامَ الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – وأمْرَه – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – لَمّا أمَرَه بِبعضِ الحُجَج وبَبعضِ التّأويلات البَاطِلة والعِياذُ بالله.

فما مِن كَافِرٍ إلّا ولَه تَأويلٌ، وهذا التّأويلُ مِن الضّلالات ومِن الأمورِ البَاطلة التي لا يُرفعُ لها رأسًا، لأنّ التّأويلَ المُستَساغ الذي يُعتَبرُ كمَانعٍ مِن مَوانِع التّكفيرِ لابُدّ للقولِ بهِ واعتبارِهِ مِن شُروط تَتَحقّقُ فيه، فإِنْ تَحقّقَت تِلك الشّروط في ذلكَ التّأويل فالتّأويلُ مُستساغ ويُقبلُ كمَانعٍ مِن مَوانِعِ التّكفير.

وبِمناسَبة هذا الكَلام مِن قَولِنا بالتّفريقِ بَينَ التّأويلِ المُستَساغ والتّأويلِ غَيرِ المُستَساغ نَذكرُ ها هُنا شُروطَ التّأويلِ المُستَساغ حتّى لا يَحتجّ مَن يَحتَج اليومَ بأنّ فُلانًا مِن المُتأوّلينَ أو أنّ هذهِ الجَماعَةَ مِن المُتأوّلين في ارتكابِ الشّركِ المُبينِ الصّريحِ الواضِحِ البَيّن الذي يُناقِضُ الرّبوبيّة والألوهيّة والأسماء والصّفاتِ جَميعًا.

فنقولُ أوّل هذهِ الشّروط التي يَنبَغي أن تَتوفّرَ في التّأويلِ المُستساغ لكَي يُعتَدّ بِهِ ويُعتبر مَانعًا مِن مَوانِعِ التّكفير:

الشّرطُ الأوّل: ألّا يَعودَ هذا التّأويلُ على الأصلِ بالنّقض:

فإذا عَادَ هذا التّأويلُ على الأَصلِ بالنّقض فلا يُعتبرُ كمانعٍ مِن موانعِ التّكفير.

ماذا نَعني أن يَعودَ على الأصلِ بالنّقض؟

نَعني لو تَأوّلَ مُتأوّلٌ مثلًا في تَعَدّدِ الآلِهَة والعِياذُ بالله، مثلًا يَأتي شَخصٌ سَقيم، شَخصٌ يَحمِلُ عَقلًا كعقولِ البَهائِم فيقولُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:9]، قالَ بِصيغَة الجَمع إذًا تَعدّد الآلِهَة، والعِياذُ بالله.

يَقولُ المُتأوّلُ أنا أتَأوّل هذهِ الآيَةَ وغَيرَها مِن الآياتِ.

فنقولُ: هذا التّأويلُ لا يُعتَبَرُ شَرعًا؛ لأنّه عَادَ على الأصلِ بالنّقض، أصل دَعوةِ الأنبياءِ والمُرسَلين جميعًا هو تَوحيدُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ما أنزلَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - الكتبَ وما أرسَلَ الرّسلَ إلّا لِتَوحيدِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكَيفَ يَأتي رَجلٌ فيَزعمُ تَعدّدَ الآلِهَةِ والعِياذُ بالله، ثُمّ يُقالُ: إنّه مَعذورٌ بالتّأويل. لا والله لا يُعذَرُ وتَأويلُ هؤلاءِ المُشركين مِن العَرب كانَ أقرَب مِن هذا التّأويلِ الذي ذَهبَ إليهِ هذا الرّجلُ والعِياذُ بالله، ولَم يُعتَبَرْ كمَانعٍ مِن مَوانِعِ تَكفيرِهم، بل كَفّرهُم النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وشَهدَ على قَتلاهُم بالنّار وحَارَبَهم، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. هذا هو الشّرطُ الأوّل.

الشّرطُ الثّاني: فلابُدّ أنْ يَكونَ للتّأويلِ المُستَساغ قَرينَةً إمّا شَرعيّة وإمّا لُغَويّة في كِتابِ الله أو سُنّة رَسولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لِذلك عُذِرَ قُدَامَةُ بنُ مَظعون رضي الله عنه وأرضَاه لمّا استَحلّ الخَمرَ لِنفسِه، عُذِرَ بالتّأويلِ لأنّه قَد تَوفّرت فيهِ شُروطُ التّأويلِ ومِنها أنّه لَه حُجّةٌ شَرعيّة أو لُغَويّة، ونَعني بِقَولِنا حُجّة أي قَرينَة شَرعيّة أو لُغويّة وإنْ هي بَاطِلة إلّا أنّها تَدرَأُ الكُفرَ عَنه، فَتابَ بعدَ ذلك لمّا بَيّنَ لَهُ عُمرُ رضي الله عنه حتّى كادَ أنْ يَيأَسَ لمّا قَالَ لهُ عُمَر: لا أعلَمُ أيّ ذَنبَيكَ أعظَم استحلالُكَ ما حَرّمَ الله أم يَأسُكَ مِن رَحمَةِ الله، فحَزِنَ حُزنًا شَديدًا على ما قَامَ بِهِ آنفًا، واستَغفرَ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ممّا ذَهبَ إليه. هذا الشرط الثاني أن تكون له قرينة شرعية أو لغوية.

الشّرطُ الثّالث: ألّا يَكونَ في المَسائِلِ المُشتَهِرَة الظّاهِرَة البيّنة.

كَما صَنعَ مَن امتَنعَ عَن إخراجِ الزّكاةِ في عَهدِ أبي بَكرٍ الصدّيق رضي الله عنه، فتَجدونَ أنّهم تَأوّلوا في أمرٍ لا يَعودُ على أصلِ الدّينِ بالنّقض أي على ربوبيّة أو ألوهيّة أو على نُبوات مثلًا، وهو تَركُ الزّكاةِ أو مَنعُ الزّكاة. هذا الشّرطُ تَحقّقَ فيهم، ثُمّ لَديهم حُجّة أو قَرينة، فاللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يقولُ: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[التوبة:103].

فالمُخاطَبُ بها النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِدَليل أنّه قَالَ: ﴿**إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ**﴾، مَن الذي صَلاتُه سَكنٌ لَهم؟ هو النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذًا الذين امتَنعوا على تَركِ الزّكاة:

أولًا: كانَ تَأويلُهم لا يَعودُ عَلى أصلِ الدّينِ بالنّقض.

وثانيًا: كانَت لَديهم قَرينةٌ شَرعيّة في تَأويلِهم البَاطِل.

ولَكن لَم يَتوفّرْ الشّرطُ الثّالِث مِن شُروطِ قَبولِ التّأويلِ كَمانعٍ مِن مَوانِعِ التّكفير وهو أنّهم تَأوّلوا في مسألةٍ ظَاهِرَةٍ بَيّنة.

لذلك لَم يَعتدّ الصّحابةُ بتَأويلِ مَانِعي الزّكاة، بل قَاتلوهُم قِتالَ المُرتَدّين، وأنزلُوا عَليهم أحكَامَ المُرتدّين كما قَالَ أبو بكر رضي الله عنه: إمّا سِلمٌ مُخزية، وإمّا حَربٌ مُجلية.

قَالوا: أمّا الحَربُ فعَرفنَاها فَما السّلمُ المُخزية؟ قَالَ وذَكرَ أُمورًا وعَدّ مِنها وأن تَشهدوا بأنّ قَتلانَا في الجَنّة وقَتلاكُم في النّار.

إذًا يَنبغي على المسلم أنْ يَعلمَ أنّ هناكَ مِن الكُفّار بل ما مِن كافِرٍ إلّا ولهُ تَأويل.

ويَعلم بعدَ ذلك أنّه ليسَ كُلّ تَأويل يُعتبرُ كمَانعٍ مِن مُوانِع التّكفير، وإنّما المَانعُ الذي كمَانِع مِن مَوانِع التّكفير هو التّأويلُ المُستَساغ.

ما معنى التّأويل المُستَساغ؟ هو الذي تَوفّرت فيهِ شُروطُ التّأويل.

فنَجدُ أنّ أولئكَ المُشركينَ كما قالَ الشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب أنّهم يَقولونَ: ما دَعوناهُم وتَوجّهنا إليهم إلّا لِطلبِ القُربَة والشّفاعَة.

أي أنّهم يَقولُون: إنّهم لا يَعتقدُون أنّ أولئكَ الأصنامَ يَخلقُون أو يَرزقُون أو يَنفعُون أو يَضرّون كما قالَ اللهُ تَعالى: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ**﴾، تأمّلوا، قَالَ اللهُ بعدَها: ﴿**وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾[يونس:18].

ما قَالَ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ويَقولون هؤلاءِ يَنفعُون ويَضرّون. بل هُم يَعتقدون أنّهم لا يَنفعون ولا يَضرّون ولكن يَقولون ويَتأوّلون بأنّهم يَشفعُون لنا عندَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. كما يَفعل المُشرِكون اليومَ - والعِياذُ بالله - مِن عَبدَة القبورِ أو مِن عَبدَة الصّالِحين والأولياءِ مِن دونِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يَقولُون: إنّما نَدعو صَاحَبَ هذا القَبرِ كي يَشفعَ لنا، لا أنّنا نَعتقدُ فيهِ أنّه يَنفعُ ويَضرّ، وأنّه يُحيي ويُميتُ إلى غَيرِ ذلك. فهُم يَحتجّون بِحُجّة المُشركينَ العَرب الذين قَاتلَهم النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكَمَا قيلَ: كَم مِن قَبرٍ يُزارُ وصَاحِبهُ في النّارِ.

فَبعضُ أولئكَ المُشركين مِن عَبدَة القبور يَعبدُون وَليًّا، وبعضُهم يَعبدُ إنسانًا عُرِفَ بالشّعوذَةِ أو السّحرِ أو نَحو ذلك. فبَعضُهم يَعبدُ صَالحًا وبعضُهم يَعبدُ طَالِحًا والعِياذُ بالله.

ثُمّ نَقفُ وقفةً أُخرى ها هنا في قول الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ**﴾، كما قُلنا: إنّهم يَعتقدون أن تِلك الأصنام لا تَنفعُ ولا تَضرّ وإنّما النّافعُ والضّارّ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هؤلاءِ هُم المُشركون الأوائل، أمّا بَعضُ المُشركين الأواخرِ كالرّافِضة مثلًا فإنّهم فَاقُوا شِركَ الأوّلين، أولئك يَعبدون أولئك الصّالحين مع اعتقادِهم بأنّ أولئك الصّالحين لا يَنفعُون ولا يَضرّون ولا يَخلقون ولا يَرزقون ولا غَير ذلك.

وإنّما كلّ تِلك الأفعال لله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – وإنّما هُم يَصرِفون بعضَ العِباداتِ لَهم مِن بابِ حُجّة الشّفاعَة أو التّوسّل أو نَحو ذلك.

لكنّ الرّافِضة اليومَ يَعبدون الأولياءَ والصّالحين مِن دونِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كعَليّ والحُسين والعبّاس وفاطمة رضي الله عنهم جميعًا، يَعبدونَهم مِن دونِ الله ولا يَعبدونَهم كي يَتوسّلوا بِهم إلى الله، بل يَعتقدُون حَقًّا ويَجزمون ويُوقنون بأنّ هؤلاءِ المَخلوقِين يَخلقُون ويَرزقُون ويُحيون ويُميتون ويُدبّرون إلى غير ذلك.

فمن الذي أنقذَ إبراهيمَ مِن النّار؟ ومَن الذي أنقذَ نوحًا ومَن مَعه مِن الغَرق؟ يَقولون: هو علي.

مَن فَعلَ كذا وكذا وكذا؟ علي علي علي. ولم يُبقوا شيئًا لله والعِياذُ بالله.

فهؤلاءِ أخبَثُ مِن المُشركينَ الأوائل.

كذلك بَعضُ غُلاةِ الصّوفيّة يَعتقدون فيما يُسمّونَهم بالأقطاب. والقطبُ هـو الـذي يَنفـعُ أو هو الذي يَتحكّم في هذا الكونِ عندَهم، فيَنفعُ ويَضرّ، ويُعطي، ويَمنع، ويَخلق، ويُحيـي ويُميـتُ إلى غَيرِ ذلك والعِياذُ بالله. فهؤلاءِ أخبثُ من المُشرـكين الأوائِـل كـمَا سـيمرّ معنـا في بقيّـة هـذهِ القَواعِد.

ثُمّ كفَائِدة في ذَيلِ هذهِ القَاعِدة، ذَكرَ الشّيخ بأنّ الشّفاعَةَ تَنقسمُ إلى قِسمَين:

قوله: (وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ. فَالشَّـفَاعَةُ الْمَنفِيَّـةُ: مَـا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللّهِ فِيمَا لا يَقْـدِرُ عَلَيْـهِ إلا اللّهُ؛ وَالـدَّلِيلُ قَوْلُـهُ تعَـالَى: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيـهِ وَلاَ خُلَّـةٌ وَلاَ شَـفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾):

<u>أمّا الشّفاعةُ المَنفيّة:</u> فهي التي تُطلَبُ مِن دونِ الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – فيما لا يَملكها.

فتُطلبُ مِن فُلانٍ وفُلانٍ مِن الأموات بأنْ يَشفعَ لأولئكَ مِن دونِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَـالَى، فهـذهِ هي الشّفاعَةُ المَنفيّة.

كذا ما لو اعتُقدَ بأنّ أولئكَ الأنبياء أو المَلائِكة أو غَيرَهم ممّن ثَبتَ لهُ الشّفاعَة كما في الكِتـابِ والسنّة يَشفَعون كمَا يَشفعُ الصّديقُ عندَ صَديقِهِ أو الوزيرُ عندَ المَلك أو الحـاكِمِ والأمـيرِ ونَحـو ذلك، فهذهِ شَفاعَةٌ مَنفيّة نَفاهَا اللهُ جَلّ في عُلاه: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَـفَاعَةٌ وَالْكَـافِرُونَ هُـمُ الظَّـالِمُونَ﴾**[البقرة:254]. هـذهِ هـي الشفاعة المنفية.

قوله: (وَالشَّـفَاعَةُ الْمُثْبَتَـةُ: هِـيَ الَّتِـي تُطْلَـبُ مِـنَ اللّهِ، وَالشَّـافِعُ مُكَـرَّمٌ بِالشَّـفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ مَنْ رَضِيَ اللّهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ؛ كَمَـا قَـالَ تعَـالَى: ﴿مَـن ذَا الَّـذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾):

وأمّا الشّفاعَة المُثبَتة: فلابُدّ أنْ تتوفّرَ فيها الشّروطُ لإثباتِها، لابُدّ مِن شَرطَين لِصحّة هذهِ الشّفاعَة ولإثباتِ هذهِ الشّفاعَة:

الشّرطُ الأوّل: الذي يَجبُ أنْ يَتحقّقَ في هذهِ الشّفاعَة أو تِلك الشّفاعَة لكي تُقبلَ وتُثبَت هو أنْ يرضَى الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - على الشّافِع ويَأْذَنَ له كَما أخبرَ جَلّ في عُلاه: **﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾**[البقرة:255].

فإذًا لا يَشفعُ أحدٌ عندَ الله، ولا يَتقدّم للشّفاعَةِ أحدٌ إلّا بإذنِهِ جَلّ في عُلاه، إذا أَذِنَ اللهُ للشّافعِ أنْ يَشفعَ يَشفَعُ، وإلّا فَلا يَشفَع. كَما جاءَ في حَديثِ الشّفاعَةِ الطّويلِ مِن حَديثِ أنس بن مالك رضي الله عنه كَما أخرَجاه في الصّحيحَين، أنّ النّاس بعدَ ذلكَ لمّا يَأتونَ إلى آدمَ وإلى إبراهيمَ وإلى نُوح وإلى موسى وإلى عيسى وإلى غَيرِهم مِن الأنبياءِ يَطلبُون الشّفاعَة ثُمّ يَأتون إلى خَاتَم الأنبياءِ والمُرسلِين – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَطلبون مِنه الشّفاعَة فيَتقدّمُ النّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وهو أكرَمُ خَلقِ الله عندَ الله، ومع ذلك يَسجدُ النّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى «فيَحمد الله ويُثني عَليه بِمحَامد يقول لا تَحضُرني الآنَ»، النّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقول. «حتّى يُقالَ لهُ: ارفَعْ رأسَك واشفَعْ تُشَفّعْ، وسَلْ تُعطَ». أو كما جاء في الحديث.

إذًا النّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – محمّد بن عبد الله سيّد ولَدِ آدمَ أجمعين لا يَتقدّم للشّفاعَة إلّا بإذنِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فإذًا أوّلُ شَرطٍ للقَولِ بالشّفاعَة المُثبَتة هو أن يَرضى اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – عَن الشّافِع ويَأذَن له. هذا هو الشّرط الأوّلِ.

الشّرطُ الثّاني: أن يَرضى الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – عَن المَشفُوعِ له. إذا رَضي الله للشّـافِعِ وعـلى الشّافع وأذنَ له، ولم يَرضَ عَن المَشفُوعِ له فهذهِ شَـفاعَةٌ مَنفيّـة وليسَـت بمُثبَتـة كـما قـالَ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –: ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**﴾[الأنبياء:28].

فلو شفَعَ مَن أُذنَ له بالشّفاعَة لِمُشركٍ – والعياذ بالله - أو لِمُنافِق أو لِمَن يَسـبّ اللهَ ولِمَـن يَسـبّ النّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أو لمَن يَستَهزِئ بالدّين، أو لِمَن يَحكُم بِغَيرِ شَريعَة رَبّ العَالمين، أو لِمَن يُناصِرُ الكَافِرين على المسلمين ولم يَتبْ بعدَ ذلك مِن هذهِ الكفريّات والشّركيّات، لـو شَـفعَ له مَن شَفع لا تُقبَلُ تِلـك الشّـفاعَة، وإنْ تَحقّـقَ الأمـرُ والشّـرطُ الأوّل في رِضى الله – سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى – عَن الشّافِعِ والإذن له إلّا أنّ الشّرطَ الثّاني لم يَتحَقّقْ في هذهِ الشّفاعَة؛ أنّ الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – لم يَرضَ عَن هؤلاءِ الذين شُفِعَ لَهم: ﴿**فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّـافِعِينَ**﴾[المدثر:48]. وكـما قال الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –: ﴿**مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾[غافر:18].

فإذًا الذينَ يُشرِكون بالله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – فهـؤلاءِ لا تَلحَقُهـم تِلـك الشّـفاعَة، هـؤلاءِ لا يَكونُ لهم نَصيبٌ في الشّفاعَة يومَ القيامَة، سَواءٌ كانَ مِن شَفاعَة المَلائِكة أو شَفاعَة الأنبيـاءِ كـما جاءَ في الأخبارِ أو مِن شَفاعَة الصّالحين أو المُؤمنين أو مِـن شَـفاعَة الشّـهداء كـما عنـدَ أبي داود والتّرمذي مِن حَديثِ رَسولِ الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – «للشّـهيد عنـدَ الله سِـتّ خِصـال»، وفي رواية «سَبعُ خِصال»، وذَكَرَ منها «ويَشفَعُ في سَبعينَ مِن أهلِ بَيتِه»، لو كانَ بعضُ أهلِ بَيتِـه مِن المشركين بالله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – من الذين يَستغيثون بغَيرِ الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – ويَدعون غَيرَ الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – ويَستَعينون بغَيرِ الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – ويَحكمون بغَـيرِ شَرعِ الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – فهؤلاءِ كما تَقدّم: ﴿**فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾[المدثر:48].

إنّما الشّفاعَة كما تَقرّرَ لِمَن رضي الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عنه كما قـالَ النّبـيّ - صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ - في الحَديثِ الذي رواه أبو داود بإسنادٍ صَحيحٍ عنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنّـه قـالَ: «**شَفاعَتي لأهلِ الكَبائِرِ مِن أُمّتي**».

هذا وهو أكرمُ الخَلقِ، وهو أفضلُ الشّـافعين - صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ - لا تَكـونُ شَـفاعَته للمشركين.

لا تَكونُ للكَافِرين، لا تَكونُ للمُنافقِين، بل النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ - كـما جـاءَ عنـدَ البُخاريّ وعندَ غَيرِه من حَديثِ ابن عبّاس لمّا قيلَ له: «ماذا أغنيتَ عَن عَمّك الذي كَانَ يَحميكَ ويَدفعُ عَنكَ - يعني العبّاس يَعني أبا طَالب - قالَ النّبـيّ - صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ -: «هـو في ضَحضَاحٍ مِن نَار يَغلي منه دِماغُه».

أو في بعضِ الرّوايات «تُوضَع جَمرتان على قَدمَيه أو يُلبَس نَعلَين مِن نَار في بَعـضِ الرّوايـات يَغلي مِنهم دِماغُه».

فالنّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لا يَشفعُ للمشرـكين، لا يَشـفعُ للكَـافِرين، النّبـيّ في خُطبـةِ الوِدَاعِ يَقولُ لِفاطمة - رضي الله عنها - يُوصيها بالتّمسّك بكتابِ اللهِ وبسنّة رَسولِه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ويُخبرُها بأنّه لا يُغني عَنها مِن اللهِ شَيئًا.

هذه فاطمة - رضي الله عنها وأرضاها - فكيف بغيرها؟.

فإذًا كَمَا قالَ النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فيما رواه مُسلم «**ومَن بَطّـأَ بِـه عَملـه لم يُسرِـعْ بـهِ نَسبُه**»

مَن أشرَكَ بالله وكانَ مِن قُرَيش، وإنْ كانَ مِن بَني هاشِم، وإنْ كانَ مِن ذُريّة النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فهذا لا تَنفَعُه شَفاعَةُ الشّافعِين وإنْ كانَ الشّافعُ هو النّبيّ الأمين - صَلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ - لأنّه هو هو القائِلُ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»، فسمّاهُم مِن أُمّته.

فهم لم يَخرجُوا مِن دَائرةِ الإسلام، هم لم يَخرجُوا مِن المِلّة بما يَرتَكبوه مِن نَواقِضَ عِظام.

القَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ:

أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ظَهَرَ عَلَى أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَشْجَارَ وَالأَحْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ**﴾ [الأنفال: 39].

الشرح:

بَيّنَ المصنّف - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في هذهِ القَاعدَة الجَليلَة أنّ النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لمّا خَرجَ على أولئكَ الأقوام الذين كما أسلفنا كَانُوا يُؤمنون بربوبيّة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ولكنّهم كَانُوا يَكفرُون مِن بَابِ الألوهيّة، مِن بَابِ صَرفِ العِبادَة لغَيرِ الله.

ها هنا يُبيّنُ المصنّفُ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أنّ صَرفَ تِلكَ العِبادَة لغَيرِ الله اختلفَ المشركُون في ذلك، مِنهم مَن يَصرِفُ تِلك العِبادَة للمَلائِكة، ومِنهم مَن يَصرِفُ تِلك العِبادَة للأصنامِ أو للأحجَارِ أو للأشجَارِ أو لغَيرِ ذلك.

ولكنّهم قد أشرَكُوا بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وعَبدُوا غَيرَ اللهِ جَلَّ في عُلاه، ولذلك كَانَ حُكمُهم واحدًا عندَ رَسولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وإنْ تَعدّدَت طَرائِقُ القَومِ، وإنْ تَعدّدَت سُبُلهم.

أولئك المشركُون لا يَتّفقُون إلّا عَلى مُحارَبةِ الإسلامِ والمسلمِين، نَجدُهم يَختلفُون فيما بَينَهم في العِبادَة، وفي التّوجه وفي الدّعاءِ وفي الاستِغاثَة إلى غَيرِ ذلك، كَما أخبرَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ﴿**وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[الروم:31]. ﴿**مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾[الروم:32].

فأولئك المشركون أحزابٌ تَفرّقُوا إلى أَحزابٍ وإلى شيعٍ وإلى جَماعَاتٍ وإلى طَوائِفَ متَعدّدة، كما ذَكرَ الشّيخُ - رَحِمَهُ اللهُ - مِن أنّ بَعضَ أولئك المشركين كَانُوا يَعبدُون المَلائِكة، ومِنهم مَن يَصرِفُ العِبادَة للأولياء، ومِنهم للأنبياء ومِنهم للأحجَارِ ومِنهم للأشجَارِ ومِنهم إلى غير ذلك.

ولكن هَل فَرّقَ النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَينَ مُشرِكٍ ومُشرِك إذا كَانَ الشّركُ مِن قَبيلِ الكُفرِ الأكبَرِ المُخرِجِ مِن المِلّة؟

فلا فَرقَ بَينَ مُشرِكٍ ومُشرِك كل ما أسلفناه مِن خَطرِ الشّرك وما يُؤدّي إليه الشّرك وما يَترتّبُ عَلى الشّرك مِن حُبوطِ جَميعِ الأعمالِ ومِن الخُلودِ في النّار ومِن الحِرمانِ مِن الجَنّة يَنطَبقُ عَلى أولئكَ المشرِكِين وإنْ تَعدّدَت أجنَاسُهم أو أصنَافُهم.

كما أنّ حُكمَهم في الآخرَةِ واحدٌ كذلك فإنّ حُكمَهم في الدّنيا واحدٌ كما فَعلَ النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في قِتالِهم.

حَكمَ عَليهم جَميعًا بالكُفرِ وقَاتلَهم جميعًا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لقولِ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾[البقرة:193].

أي حتّى لا يَكونَ الشّرك ويَكونَ الدّينُ كُلّهُ لله.

فإذا كانَ بعضُ الدّينِ لله والبَعضُ الآخَرُ لغَيرِ الله وجبَ القِتالُ حتّى يَكونَ الدّين كُلّه لله.

إذا كَانَ بعضُ الدّعاء لله والبَعضُ الآخرُ لعليّ وللحُسَين وللجيلاني وغَيرِهم وَجَبَ القِتالُ حتّى يَكونَ الدّينُ كُلّهُ لله.

إذا كَانَ بَعضُ الدّين في الأحوالِ الشّخصيّة لشَريعَةِ رَبّ العَالِمين، وفي الأموالِ والدّماءِ والأعرَاضِ وغَيرِ ذلك لغَيرِ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - للفَرنسيّين أو البريطانيين أو للأمريكيين أو غَيرِهم وَجَبَ القِتالُ حتّى يَكونَ الدّينُ كُلّهُ لله كما أخبرَ الله وكما فَعلَ رَسولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مع أولئكَ الذينَ مَرّ مَعنا أنّهم كَانُوا يُؤمنون بربوبيّة الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - غَيرَ أنّهم يُشركُون بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ**﴾[يوسف:106].

فقد يُؤمنون بالرّبوبيّة، ويَتركُون إيمانَهم بالألوهيّة، أو يُؤمنون بالرّبوبيّة ويُوحّدون الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - في النّسُك والعِبادَة ولكنّهم يُشركُون في الحُكمِ والتّشرِيع.

وقد يُؤمنون بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - في الرّبوبيّة وفي العِبادَة والنّسُك وفي الحُكمِ والتّشرِيع ويُشركون بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - في الوَلاءِ والبَراءِ وهكذا.

إذًا ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾[البقرة:193].

كما أخبرَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وكما أمَرَ، وكما فَعلَ رَسولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَع هؤلاءِ القَوم وكَانُوا قد تَنوّعَت شِركيّاتُهم.

وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؛ **قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ [فصلت: 37].

الشرح:

بَدأَ الشّيخُ بعدَ أنْ ذَكرَ الكَلامَ مُجمَلًا في أنّ الذينَ بُعثَ فيهم النّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وحَكمَ فيهم حُكمًا واحدًا وقَاتَلَهم النبي – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هُم مُتفرّقون، ذَكرَ الأدلّة التّفصيليّة على ذلك، على تَفرّقِهم في عِبادَتهم، بَعضُهم كَانَ يَعبدُ الشّمسَ والقَمرَ كَما بَيّنَ الشّيخُ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى– وبَيّنَ واستَدلّ بَقولِ الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى –: ﴿**لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ**﴾، إذًا هذا النّهي مِن الله لأُناسٍ كَانُوا يَعبدُون الشّمسَ والقَمرَ مِن دونِ الله، والشّمسُ مَخلوقَةٌ مِن مَخلوقَات الله وآيةٌ مِن آياتِ الله الدّالّة على وجودِ الخَالِقِ جَلَّ في عُلَاه.

كذلك القَمر مَخلوقٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والقَمرُ آيةٌ مِن آياتِ الله جَلَّ في عُلاه، فلا يَنبَغي أنْ تُصرَفَ العِبادةُ للشّمسِ ولا للقَمَر.

الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – ذَكرَ على لِسان الهُدهد في بَلقيسَ وقَومِها: ﴿**وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ**﴾[النمل:24].

فإذًا كانَ هناك مِن المشركِين مَن يَصرِفُ العِبادةَ لغَيرِ الله رَبّ العَالمِين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأمَرَ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بالسّجودِ، والسّجودُ مِن أنواعِ العِبادةِ لله وحدَه لا شَريكَ لَه جَلّ في عُلاه.

والنّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – نَهى عَن السّجودِ لغَيرِ الله، بل وأعظَم مِن ذلك نَهى عَن السّجودِ لله في الوقتِ الذي يُسجَدُ فيهِ لغَيرِ الله كَما جاءَ في الصّحيحَين مِن حَديثِ عبد الله بن

عُمر – رضي الله عَنهما – أنّ النّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – نَهى عَن الصّلاة في طَرَفَي النّهارِ، في وَقتِ بُزوغِ الشّمسِ، وفي وَقتِ غُروبِها، نَهى النّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَن الصّلاة لله في هذا الوقتِ الذي يُعبَدُ فيه غَيرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

في هذا الوقتِ يَسجدُ الذين يَعبدُون الشّمسَ للشّمسِ في وقتِ الغُروبِ وفي وقتِ الشّروق، فنَهى النّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَن المُشَابَهةِ لأولئك الذين يَعبدُون غَيرَ الله فكيفَ بِعبادةِ غَيرِ الله!. لاشَكّ أنّ ذلك مِن بَابٍ أولَى وأولَى.

وهذا دَليلٌ ذَكرَهُ شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيمية – رَحِمَهُ اللهُ – كما في " اقتضاءِ الصّراطِ المُستقيم في مُخالَفةِ أصحَابِ الجَحيم " ذكر هذا الدّليلَ مِن جُملَةِ ما ذَكرَ في أنّ مِن مَقاصِدِ الشّريعَة مُخالَفةُ المُشركين، مُخالَفةُ اليَهودِ والنّصارَى، ومِن مَقاصِدِ الشّريعَة عَدمُ التّشبّهِ بالمُشركِين، وعَدمُ التّشبّه باليَهودِ والنّصارى وبغَيرِهم، كَما عندَ الإمامِ أحمَد – رَحِمَهُ اللهُ – مِن حَديثِ ابنِ عُمرَ «**ومن تشبه بقومٍ فهو منهم**»، وجَوّزَ إسنَادَه شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيمية رَحِمَهُ اللهُ.

وَدَلِيلُ الْمَلائِكَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا...** ﴾ الآية [آل عمران: 80].

الشرح:

ذَكَرَ المصنّفُ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أنّ هُناكَ مِن المشركِين الذينَ ظَهرَ عَليهم رَسولُ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَن يَعبدُ الشّمسَ والقَمرَ واستَدلّ عَلى ذلك بآيةٍ مِن كِتابِ الله.

كذلك بَيّنَ أنّ هناك مِنهم مَن يَعبدُ المَلائكةَ ويَصرِفُ العِبادةَ للمَلائكةِ واستدلّ لهذا مِن كَلامِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهَا هُنا تَعلَم أنّه لا فَرقَ بَينَ ما لو صُرِفَت العِبادةُ لطالح لُمشرِكٍ، لعَاصٍ، لفَاسقٍ، لدَجّالٍ أو إذا صُرِفَت العِبادةُ للأنبياءِ، وللأولياء للملائكة، فكُلّه شِرك.

ففي ذلك ردٌّ عَلى القبوريّين الذينَ يَتحجّجون لأنفُسِهم بأنّهم ما دَعوا إلّا هذا الصّالِح، إلّا هذا الذي لَهُ مَنزِلَةٌ عندَ الله، هذا لَه مَقامٌ عَالٍ عندَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هكذا يَقولُون.

بَينَما الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - قالَ: ﴿**وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا...** ﴾ الآية [آل عمران: 80]. اللهُ يَنهى عَن هذا الفعلِ سَواءٌ صُرِفَت العِبادةُ للمَلائِكة أو للأولياء أو الأنبياء أو لِغَيرهم ممّن هو من دونهم. فذلك شِركٌ نَهى اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عَنه.

إذًا المَلائكةُ هُم عِبادٌ مِن عِبادِ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- لا يَنبَغي أنْ تُصرَفَ العِبادةُ لَهم، كَما أنّ الأنبياءَ عِبادٌ لله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لا يَنبَغي أنْ تُصرَفَ العِبادةُ لَهم، كذلك مَن دونَهم.

وكَمَا أنَّ في هذا الحَديثِ دَليلٌ عَلى أنَّ هُناك مَن يُشرِك بالله المَلائكةَ كذا فيه دليلٌ على أنَّ هُناك مَن يُشرِك مَع اللهِ النّبييّن كَمَا أخبرَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وكَمَا هو بالدّليلِ الذي سَردَه الشّيخُ بعدَ هذا الدّليل.

وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**﴾[المائدة: 116]

الشرح:

كما بَيّنَ الشّيخُ أنّ مِن المُشركين الذينَ خَارِج دِين النّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وحَكمَ عَليهم بالكُفرِ والضّلال وقَاتَلهم لذلك – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وحَرّضَ على قِتالِهم، مِنهم مَن يُشرِكُ مَع اللهِ الأنبياءَ كاليَهودِ والنّصارَى.

اليَهودُ أشرَكوا عُزَيرًا وقيلَ: إنّ عُزَيرًا مِن أنبيائِهم، وقيلَ: إنّه مِن الصّالِحين.

والنّصارى أشرَكوا مَع اللهِ عيسى بن مريم – عليه السلام – وهو مِن أنبياءِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو مِن أُولى العَزمِ مِن الرّسل.

كما أنّ في هذا الدّليلِ الذي ذَكرَه المصنّفُ – رَحِمَهُ اللهُ – أنّ هُناكَ مَن عَبدَ الأنبياءَ كذلك فيهِ دَليلٌ على أنّ هناكَ مَن عَبدَ الصّالِحين.

وأمّ عيسى – عليها السلام – هي مِن الصّالِحاتِ، مِن الصّدّيقات، فمَن عَبدَها كانَ أشرَكَ مَع الله بعِبادَتِه صَالِحةً مِن الصّالحات وصدّيقةً مِن الصدّيقات.

وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ...**﴾ الآية [الإسراء: 57].

الشرح:

اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يَقولُ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلًا﴾[الإسراء:56].

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[الإسراء:57].

هؤلاءِ الذين لا يَملكون مِن دونِ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - نَفعًا ولا ضَرًّا ولا تَحويلًا، هؤلاءِ وإنْ كَانُوا مِن الصّالِحِين لا يَجوزُ إشرَاكُهم مَع الله تَعالى في العِبادة.

الوسيلَةُ هي الأمرُ المُوصِلُ إلى أمرٍ مُعيّن، فتَقولُ: أتيتُ المسجدَ بوسيلَة السيّارة، فإذًا السيّارةُ هي الوسيلَةُ المُوصِلةُ لك إلى المسجد.

هؤلاءِ اتّخذوا هؤلاء الذين ذَكرَهم الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - في هذهِ الآياتِ وسيلَةً يَزعمون أنّهم يُوصلونَهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإلى مَرضَاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

نَقولُ: الوسيلَةُ تَنقسمُ إلى قِسمَين:

مِنها ما هو مَشروع.

ومِنها ما هو مَمنوع.

فأمّا التّوسّل المَشروع: كالتّوسّلُ إلى الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بأسمائِهِ وصِفاتِهِ.

كما جاءَ عَن النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في الأدعيةِ المَأثُورة. «**أعوذُ بِكلِماتِ اللهِ التّامّات مِن شَرّ ما خَلق**»، وكذلك في أدعَيةِ الصّباح والمَساء.

كما جاء في الدّعاءِ المَأثُور «**أعوذُ بكلماتِ الله التّامّة مِن كُلّ شَيطانٍ وهَامّة ومِن كُلّ عَينٍ لامّة**».

إذًا فالعَوذُ بكلماتِ الله، وهذهِ الأحَاديث مِن جُملَةِ الأحاديثِ التي استدَلّ بِها الإمامُ أحمَد - رَحِمَهُ اللهُ - على أنّ كَلامَ اللهِ ليسَ بِمخلوق؛ لأنّه لا يَجوزُ التّوسّل بالمَخلوقِين ولكن هي مِن صِفاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. كما أنّ القرآنَ كلامُ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وهو مِن صِفاتِه ليسَ بِمخلوق. إذًا يَجوزُ للمُسلمِ أنْ يَتوسّلَ إلى اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بأسماءِ اللهِ وصِفاتِه جَلّ في عُلاه.

كذلك مِن أمثلَةِ التّوسّل المَشروع: التّوسّلُ بِصالِحِ الأعمالِ كما جاءَ في الحَديثِ المُتّفقِ عَليه الذي ذَكرَه لنا النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِن قِصّة أولئك الرّهط الثّلاثَة الذين نَزلَ عَليهم المَطرُ فدَخلوا إلى غَارٍ في الجَبلِ ليتّقوا المَطرَ فَسَدّ عَليهم ذلك الغَارَ بصَخرَةٍ عَظيمة. فَقَالُوا: هَلمّوا نَتوسّلُ إلى الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بصَالِحِ أعمالِنا، فتَوسّلَ كلّ مِنهم بما يَذكرُه بأنّه من أَخلَصُ عَمله وأفضلهِ مِن الصّالِحات حتّى فَتحَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وهذهِ القِصّة المَعروفَة المَشهورَة.

إذًا فتوسّلوا بِصَالِحِ أعمالِهم وفي ذلك جَوازُ التّوسّلِ إلى الله بِصالِحِ العَملِ. تَتقَرّبُ بِصدقَة مثلًا، بجِهادٍ في سَبيلِ الله ثُمّ تَدعو الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بصَالحِ ذلك العَمَل. هذا مِن قَبيلِ التّوسّلِ المَشروع.

التّوسّلُ المَمنوع: وهو النّوع الثّاني مِن أنواعِ التّوسّل كما يَصنعِ المُشركُون في دُعائِهم غَيرَ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - والاستغاثَةَ بغَيرِه، يَقولُون: نَحنُ نَدعو هؤلاءِ لمَنزلَتهم عندَ اللهِ وهم بالتّالي يُوصلُون حَوائِجنا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. هذهِ الآياتُ التي نَزلَت في أولئكَ قِيلَ إنّها نَزلَت في أُناسٍ كَانُوا يَعبدُون المَلائِكة وعيسى بن مريم (عَليهما السّلام).

فَبَيّنَ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أنّ هؤلاءِ الذينَ تَدعونَهم مِن دونِ الله لا يَملكُون ضَرًّا ولا نَفعًا، وبَيّنَ أنّهم يَتوسّلون هُم أنفسُهم (هؤلاءِ المَلائكة وهؤلاء الأنبياء)، هُم أنفسُهم يَتوسّلون إلى الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ولا يُشركُون مَعه غَيرَه كما رُوي ذلك عَن ابنِ عبّاس - رضي الله عنهما - في الحَديثِ الذي رَواه عَنه الإمامُ الطّبري رَحِمَهُ اللهُ.

وقِيلَ: بل هُم أُناسٌ مِن الإنس كَانُوا يَتوسّلون ويَعبدُون بَعضَ الجِنّ مِن دونِ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فأسلَمَ أولئك الجِنّ وأصبَحوا لا يُشركُون بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أو مع الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - شيئًا.

بَينما أولئكَ الإنس ما زالوا في دُعاءِ وعِبادَة أولئك الجِنّ مِن دونِ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - كما رَوى ذلك الإمامُ البخاريّ - رَحِمَهُ اللهُ - عَن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأرضاه.

فإذًا مِن المُشركِين الذين بُعِثَ فيهم النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَن لم يشرك بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - معه أو يشرك بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بَعضَ الصّالِحِين مع الله - تَبارَكَ وَتَعَالَى

وَدَلِيلُ الأَشْجَارِ وَالأَحْجَارِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى**﴾ [النجم: 19، 20].

وَحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ، يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيُنَوِّطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالَ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. الحَدِيثَ.

الشرح:

أولًا: ذَكرَ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – في هذهِ الآياتِ الكَريماتِ بعضَ مَعبوداتِ أولئكَ الكُفّار الذين يَصرفُون العَبادةَ لها مِن دونِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مِن ذلكَ اللّاتِ.

اللّاتُ: هو صَنمٌ في الطّائفِ تَعبُده ثَقيف، وقِيلَ: هو وَثنٌ لرجُلٍ صَالحٍ كانَ يَفتّ الطّعامَ للحَجيج، فلمّا ماتَ جَعلوا على قَبرِهِ ضَريحًا وبَنوا عَليه، وعَبدوه من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، صَرفُوا العِبادةَ لَه مِن دونِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأمّا العزّى: فهي شَجراتٌ كَما قِيلَ بَينَ الطّائِفِ ومَكّة، كَانُوا يَعبدونَها مِن دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وكَانُوا يَستغيثون بِها ويَدعونَها، ويَتوكّلونَ عَليها، ويَذبَحون لها، ويَطوفُون بها إلى غَيرِ ذلك مِن أنواعِ العِبادَة.

كذا مَنَاة: وهي صَخرةٌ بَينَ مَكّة والمَدينة، يَعبُدها فِئامٌ مِن الأوسِ والخَزرَج، كَانُوا يَعبدون هذهِ الصّخرَة العَظيمةَ مِن دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يَصرفُون لَها أنواعًا مِن العِبادَة مِن دونِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فإذًا هذهِ أبرزُ وأعظَمُ مَعبودَاتِ العَربِ في ذلك الحين قَبلَ ظُهورِ الإسلام، كما ذَكرَ الشّيخُ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- ودَليلُ الأشجَارِ والأحجَار. فإذًا كما أسلفنا أنّ العُزّى مِن الأشجَار واللّات ومَناةَ مِن الأحجَار.

بذلكَ يَستدلّ الشّيخُ على أنّ مِن المُشركِين الذينَ بَعثَ اللهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - رَسولَنا - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فيهم مِن بَينِهم مَن كَانَ يَصرِفُ العِبادَةَ للأحجَارِ وللأشجار.

كما استَدلّ بحَديثِ أبي واقدٍ اللّيثيّ رضي الله عنه كما أخرَجهُ الإمامُ أحمَدُ في مُسنَده والإمامُ التّرمذي -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- وصَحّحه الألباني.

هذهِ القصّة في هذهِ الحَادِثة أنّ أبا واقد وهو مِن جُملَةِ المسلمين الذينَ أسلَموا في فَتحِ مَكّة، والذين يُعرَفون بمَسلَمة الفَتح. فالنّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَتحَ اللهُ لهُ مَكّة في عِشرين مِن رَمضان في السّنة الثّامِنة مِن الهِجرة. وكَانَت غَزوةُ حُنَين في شَوّال مِن السّنة ذاتِها، وما بَينَ فَتحِ مَكّة وغَزوة حُنَين أقلّ مِن شَهر، فهؤلاءِ حُدثَاءُ العَهدِ بالإِسلام أو في بَعضِ الرّوايات حُدثاءُ عَهدٍ بالكُفرِ وكِلا المَعنَيين صَحيح.

فلا زَالوا حُدثاءَ في مُفارَقةِ الكُفرِ، وحُدثاءَ في انتسابِ الإِسلام، وما دلّ عَليه الإِسلامُ مِن التّوحيدِ الخَالِص لله العَليّ العَلّام سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فكَانَ مِن أمرِ هؤلاءِ الجُدُد في الدّين أنّهم لَمّا مَرّوا مَع رَسولِ الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِشَجَرة مِن الأشجَار، طَلبُوا مِن النّبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن يُنيطوا عَليها الأسلحَة، والإِنَاطَةُ هي التّعليقُ كَمَا ذَكرَ الإمامُ ابنُ مَنظورٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في " لِسانِ العَرب ".

فَأَرَادوا أن يُعلّقوا الأسلحَة على هذهِ الشّجرة تَشبّهًا بالْمُشرِكين الذين يَتبرّكون بالأشجَار ويُعَلقون عَليها الأسلحَة تَبرّكًا بتِلكَ الأشجَار، تَبرّكًا بِذاتِ أنواط. فَتَعجّبَ النّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِن ذلك الطَلَب وزَجَرَهم فقال: «**اللهُ أكبرُ! إنّها السّنن، قُلتُم والذي نَفسي بِيَده كما قَالَت بنو إسرائيلَ لِموسى: اجعَلْ لَنا إلهًا كما لهم آلهة**».

فأولئك مِن بَني إسرائيلَ لَمّا جَاوزَ اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – بهم البَحرَ ونَجّاهُم مِن فِرعَون مَرّوا على أُناسٍ يَعبدون الأصنامَ مِن دونِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مَرّوا على أُناسٍ مِن الوثَنييّن فقَالوا: اجعَلْ لَنا إلهًا كما لهم آلهة. قالَ: «إنّكم قَومٌ تَجهَلون».

يَتعلّقُ بهذا الحَديثِ أو بِفقهِ هذا الحَديث مَسَائِل:

أولًا: إنّ هؤلاء كانُوا حُدثاءَ عَهدٍ بالإِسلام، وهم لم يَفعلوا شِركًا صَريحًا واضِحًا، ولكنّهم طَلبُوا أمرًا هو مِن ذَرائِع الشّرك، كما أنّ بَني إسرائيلَ لم يُباشِروا الشّرك، هُم طَلبوا ذلك الطلب ويَكمُنُ فيه مِن الاحتمالات ما اللهُ بِهِ عَليم، وكما قيل: إذا تَطرّقَ إلى الدّليلِ الاحتمالُ بَطُلَ بهِ الاستدلال.

فلا يَصحّ أن يُستدلَّ بفعلِ بَني إسرائيل ذلك، ولا بِفعلِ هؤلاءِ الجُدد مِن أصحابِ رَسولِ الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِن مَسلمة الفَتح على القَولِ بالعُذرِ بالجَهلِ مُطلقًا. لا يُسلّم لَهم تِلك الدّلالة:

أولًا: إنّ بَني إسرائيلَ لم يَفعلوا الشّركَ، ولم يُباشِروا الشّركَ وإنّما طَلبُوا طَلبًا وهذا الطّلبُ يَدخلُه الاحتمالات.

لو فعلوا الشّركَ عندَ ذلك وعَذرَهم نَبيّ اللهُ عَلَيْهِ موسى عندَ هذا قد يَصحّ أن يُحتّجَ بهِ كدَليلٍ مِن أدلّة القَائلين بالعُذرِ بالجَهل مُطلقا.

نأتي إلى مَسألة ذاتِ أنواط.

أولًا: هُم لم يُباشروا ذلك.

ثانيًا: هذا الأمرُ هو مِن صَغائِرِ الشّرك، وليسَ مِن الشّركِ الأكبَر الصّريح وإنْ ذَهبَ إليه بعضُ أهلِ العلم - رَحِمَهُمُ اللهُ - كالشّيخ المجدّد محمّد بن عبد الوهّاب، ذهبَ إلى أنّ ذلك الفعلَ يُعدّ مِن الشّركِ الأكبَر كما قَرّرَ ذلك في كِتابِ " التّوحيد " الذي هو حَقّ اللهِ عَلى العَبيد.

على الخِلافِ الكائن في تِلك المَسألة إلّا أنّهم كمَا أسلفنا لم يُباشِروا ذلك وكانُوا حُدثاءَ عَهدٍ بإِسلام لذلك عَذرهُم النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

القاعدة الرابعة:

أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانَنَا أَغْلَظُ شِرْكًا مِنَ الأَوَّلِينَ، لأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ، وَمُشْرِكُوا زَمَانَنَا شِرْكُهُمْ دَائِمٌ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّة؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ**﴾ [العنكبوت: 65].

تمّت. وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

الشرح:

يُبَيّنُ الشّيخُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- في هذهِ القَاعدةِ الرّابعَة مِن القَواعِد الأربَع أنّ الشّركَ يَتفاوتُ، والكُفرَ يَتفَاوت، فبَعضُه أعظَمُ مِن بَعضٍ، وبَعضُه أشنَعُ مِن بَعضٍ، وبَعضُه أنزلُ مِن بَعضٍ، وهو دَركَاتٌ وليسَ بدَرجات.

اللهُ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – يَقولُ: ﴿**إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ**﴾[التوبة:37] فهُناك كُفر وهناك كُفرٌ مَزيد. لا زَالَ يَذهبُ إلى ذلك الأحنافُ – رَحِمَهُمُ اللهُ – مِن قَولِهم: ليسَ بعدَ الكُفرِ ذَنب.

بل ذَهبَ الجمهور وهم المَالكيّة والشّافعيّة والحَنَابِلة إلى أنّ بعدَ الكُفرِ ذَنب، فهُناك كُفر، وهُناك كُفرٌ مُضاعَف. هُناك كُفر، وهُناك كُفرٌ مَزيد وهكذا.

فكُفرُ المُلحدِين الجَاحدِين لربوبيّة اللهِ سبحانَه وتَعالى أعظمُ وأكبَرُ مِن كُفرِ المُشركين الذين يُؤمنون بروبيّة الله ويُشركون في ألوهية اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهُناك طرائق عَديدة تَستَطيعُ أنْ تُقرّرَ في مَرَاتِب الكُفر. لكنّه كُلّه مِن المُخرِجِ مِن المِلّة، كُلّه مِن المُخلّد في نارِ جَهنم أبدَ الآبادِ والعِياذُ بالله. هذا هو الشّرك الأكبَر.

والشّركُ الأكبَر أو الكُفرُ الأكبَر أيضًا يَتفاوَت، فهو دَركاتٌ كما أسلفنا وبَيّنا.

ها هُنا يُقرّرُ الشّيخ ويُدلّلُ الشّيخُ أنّ شِركَ مُشرِكي زَمانِنا أي المُشركين المتأخّرين أعظمُ مِن شِركِ الأوائلِ الذينِ بُعثَ فيهم النّبيّ الأمين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ووجهُ ذلك التّفاوت كمَا بَيّنَه الشّيخُ ها هُنا أنّ المُشركين الأوائِل إنّما كَانُوا يُشركُون مَع اللهِ، ويُشركُونَ مِن دونِ الله في حَالِ الطّمأنينةِ والسّعة وفي حَالِ الرّخاء.

أمّا في الشّدّة وفي العُسر وفي الحرُوبِ وفي النّوازِل والكرُوب فإنّهم يُخلصُون العِبادَة لله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - إنّهم يَدعون اللهَ -جَلَّ وَعَلَا- ولا يُشركُون مَعه غَيرَه، أولئكَ المُشركون الأوائِل الذينَ كَفّرَهم النّبيّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وقَاتَلَهم.

أمّا المُشركون الجُدد أو المشركون المُعَاصرون فإنّهم يُشركون معَ اللهِ ومِن دونِ اللهِ في حَالِ الرّخاءِ وفي حَالِ الشّدّة على السّواء.

في حَالِ الرّخاءِ يَدعون غَيرَ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - كما أنّهم في حَالِ الشّدّة أيضًا يدعون غيره، بل إنّ بَعضَهم لا يَعرفُ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أبدًا لا في رَخاءٍ ولا في شدّة.

بل لرُبما يَكونُ أشدّ إخلاصًا لغَيرِ اللهِ في الشّدّة أعظم ممّا هو مُخلص لغَير اللهِ في الرّخاء.

يدعو عليًّا، ويدعو الحُسين، ويَدعو فَاطمة والعبّاس، يَدعو البَدويّ. يَدعو فُلانًا وفُلانًا وفُلانًا بدونِ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - في الرّخاءِ والشّدّة.

ولقد رَأيناهُم وسَمعناهُم مُباشرةً فلسنا عَنهم بمَعزِل، الرّافضةُ عندَنا في البَحرين كُثُرٌ -لا كَثّرِهم الله- في المُستشفيات مَثلًا تَسمعُ العَجوزَ التي أنهَكهَا المَرضُ، وأقعَدهَا المَرضُ تَستغيثُ وتَستَنصرُ فتقولُ: يا عليّ، يا عليّ. تَدعو مِن دونِ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وتُشرِكُ معَ اللهِ حتّى في

الشدّة وفي المَرض، في الجوعِ وفي البأساء والضّرّاء في البَحرِ، بل حتّى في الجَو سَمعتم ذلك الرّافضيّ المُشرِك الذي يَقول: إنّ الطّائرةَ كَادَت أنْ تَسقطَ بهم فَصاحَ ونَادى يا صاحبَ السّماء. يا صاحبَ السّماء، ويَعني بِه المَهديّ، المَهديّ الذي في السّرداب، فأنقَذهُ بعدَ ذلك وارتَفعَت الطّائرةُ ووصَلَت الرّحلة.

فهُم يُشركون معَ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - في الرّخاءِ وفي الشّدّة على السواء. هُم أشدّ في الشّركِ مِن المُشركينَ الأوائِل الذين لا يُشركون معَ الله إلّا في الرّخاءِ وفي الطّمأنينة وفي السّعادة.

أمّا في الشّدّة والضيق، في الهمومِ وفي الخُطوب فهُم يُخلِصون العِبادَة لله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ويتوجهون إليه.

الرّافِضةُ يُقسّمون الأدوارَ في هذا الكَون، فهُناك مَن يُنجيك مِن السّلاطين ومِن ظُلمِ السّلاطين، فتَدعو فُلانًا ليُنجيكَ مِن السلاطين، وتَدعو فُلانًا لِظُلماتِ البَرارِي والبِحار، وفُلانًا لكذا وكذا، وفُلانًا للخَوفِ مِن المَوت والهَلَكَة وهكذا.

فهُم كَما جاءَ ذلك في (بِحارِ الأنوار) هكذا يُسمّونَه، بَينما هو (بِحارُ الظّلمات)، فإذًا هؤلاءِ المُشركون المُتأخّرون أو المُعاصرون أخبثُ مِن المُشركين الأوائِلِ مِن حَيثُ هذهِ الحَيثيّة أو مِن حَيثُ هذا الجَانب، أنّهم يُشركون معَ الله في الرّخاء والشّدة، بَينما الأوائلُ يُشركون معَ الله في الرّخاءِ دونَ الشّدة. هذا وجهٌ مِن أوجِهِ التّفاوت بَينَ أولئك المُشركين وبَينَ هؤلاءِ المُشركين.

ووجهٌ آخَرُ أيضًا كَما ذَكرَه الشّيخُ المجدّد محمّد بن عبد الوهّاب -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- ولكن ذَكرَ ذلك في رِسَالته القَيّمة (كَشفِ الشّبهات)، ذَكرَ أنّ المُشركين المُعاصرين أخبَثُ شِركًا مِن الأوّلين.

كيفَ ذاك؟ ومن أي الوجوه ذاك؟

قالَ: إنّ المُشركين الأوائِل لا يُشركون معَ اللهِ إلّا الصّالحين أو المَلائِكة أو الأنبياءِ أو الأولياء. فهُم يُشركون معَ اللهِ كَما تَقدّم في القاعدَة الثّالثة أولئك الأقوام أو أولئك المَخلوقات التي:

- إمّا أنّها مِن الأنبياءِ والمُرسَلين.
- وإمّا مِن المَلائِكة المُقرّبين.
- وإمّا مِن الأولياءِ والصدّيقين.
- وإمّا مِن الجَمادات التي لم تَعصِ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ولم تُحارِب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أمّا المُشركون الجُدد، المُشركون المُتأخّرون، المُشركون المُعاصرون فهُم يُشركون معَ اللهِ الصّالحَ والطّالِح على السّواء.

يُشركون معَ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مَن لم يَسجدْ للهِ سَجدةً.

يُشركون معَ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أولئكَ الذين يُسمّونَهم بالأقطَاب والأغواثِ الذين أضَافُوا إلى أنفُسِهم جَميعَ الكُفريات والشّركيّات والمَعاصي والفجور والزّنا والخَنا واللّواط - والعِياذُ بالله- بِحجّة أنّ التّكليفّ رُفعَ عَليهم؛ لأنّهم وصَلوا إلى دَرجةِ اليَقين.

فهؤلاءِ المُعاصرون يُشركون أولئك المُجرمين، أولئكَ المُشركين، أولئك العُصاة العُتاة معَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبذلك يكونون قد فَاقوا المُشركين الأوائل مِن هذهِ الجُزئيّة أيضًا مِن هذهِ الحَيثيّة أيضًا مَن هذا البابِ أيضًا. أنّ أولئك لا يُشركون معَ الله إلّا أولئك كَما تَقدّم مِن الصّالحين والمُرسَلين ومِن أمثالِهم.

وكله شرك ولكن كمَا قَدّمنا في هذهِ القَاعدة، هُناك شِركٌ، وهناك شِركٌ أعظمُ وأخبثُ. أمّا المُتأخرون المعاصرون فهُم يُشركون معَ الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - الصّالحين والطّالِحين.

يُشركون معَ الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - المُفسدين، ويُشركون مع الله – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – الكَافِرين والمُشركين والعِياذُ بالله.

هذهِ هي القَواعِدُ الأربَع كمَا قَرّرَها الشّيخُ المجدّد محمّد بن عبد الوهّاب رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

مَن استحضرَ هذهِ القواعدَ ومنَ رَاجعَ هذهِ القواعدَ لم يَخفَ عَليه، ولن يَخفَى عليه ما يَقومُ بهِ بعضُ المُلبّسين وبعضُ المُدلّسين مِن خَلطِ هذا بذاك، مِن خَلطِ المُسلمِ بالكَافر المُوحّد بالمُندّد، بحجّة أنّ هذا يَقول: لا إله إلّا الله، وهذا يَقولُ: لا إله إلّا الله.

مَن درسَ هذهِ القَواعدَ يَعلمُ أنّ لـ (لا إله إلّا الله) معنىً لابُدّ مِن الإتيانِ بهِ.

أنّ لـ (لا إله إلّا الله) شُروطٌ لابُدّ أن تَتوفّرَ.

أنّ لـ (لا إله إلّا الله) نَواقِض يَنبَغي ويَجِبُ أن تُجتَنَب تِلك النّواقِض ولا تُخترَق ولا تُهدم وإلّا فقد نَقضَ ذلك القائِلُ لـ (لا إله إلّا الله)، قد نَقضَ التّوحيد، ولم تَعصمْه تِلك الكَلمة لأنّه يَقولُ قَولًا ويَفعلُ ما يُناقِضُ ذلك القَولَ والعِياذُ بالله.

فعَلينا جَميعًا أنْ نَحترسَ مِن الشّركِ، وأنْ نَحترسَ مِن صَغائرِ الشّركِ.

وأنْ نَحترسَ مِن مُوالاةِ المُشركين وإنْ تَسمّوا بالمُسلمين وبأسماء المسلمين وبِثيابِ المُسلمين وبِلسانِ المُسلمين.

فلا نَنخَدع بأولئك بالقَومِ الذين يُشركُون بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بِكلّ أنواعِ الشّركِ الأكبَر أو صُورِ الشّرك الأكبَر فحَالُهم هو يُضاهي حَالَ المُشركين الأوائِل بل يَفوقُهم في بَعضِ الجَوانبِ وتَقدّموا عَليهم إلى جَهنّم خَطواتٍ والعِياذُ بالله. وقَانا اللهُ وإيّاكُم مِن جَهنّم.

والله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أعلَمُ وصلّى الله وسلّم عَلى نَبيّنا محمّد وعَلى آله وصحبه أجمعين.